تراثنا

التحبير في التذكير

للإمام
عبد الكريم القشيري

دراسة لأسماء الله الحسنى وصفاته بقلم باحث صوفي وسني أشعري

حققه وقدم له وعلق عليه
الدكتور ابراهيم بسيوني

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٨

قومنا النص على نسختين :

مصرية ونرمز إليها بالحرف (م)

سوفيتية ونرمز إليها بالحرف (س)

تقديم

ترجع صلتي بالقشيرى إلى عهد اليفاعة ، فقد تفتحت عيناى على « رسالته » العظيمة ضمن ما كان يقتنى عمى رحمة الله عليه من مصنفات دينية ، وأشهد لقد كانت أحب الكتب جميعاً إلى عقلى وقلبى ؛ كنت أجد فيها عمق الفكرة التى تمتع العقل ، وإشراق الأسلوب الذى يمتع القلب ، وعلى حين كتبها صاحبها — كما يقول فى مقدمتها — إلى طائفة الصوفية فى كل بقاع العالم الإسلامى إلا أنها تجاوزت — وهذه قدرة من صاحبها — هذا النطاق المخصوص لتخاطب كل مسلم ، ولتؤثر فى كل وجدان .

ثم قويت الآصرة بيى وبين القشيرى حين كنت أعد رسالة الماجستير عن نشأة الشعر الصوفى ، وزادت الصلة بيى وبينه قوة حين اخترته موضوعاً للدكتوراه ، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش معه ، وأنقب عن آثاره ، وأحاول أن أعرف الناس به

والناس يعرفون القشيرى من خلال « رسالته » فهى إلى جانب كتيب صغير هو « المعراج » الذى حققه وأخرجه الدكتور على عبدالقادر عام ١٩٦٤

هما الكتابان المطبوعان للقشيرى ، أما بقية آثاره التى تزيد على العشرين كتاباً فما زالت حتى الآن مخطوطة ومبعثرة بين الهند وتونس وبروكسل ولندن وتونس وغيرها

وقد أتيح لى أثناء إقامتى فى الاتحاد السوفيتى لمدة عامين وخلال رحلات علمية عديدة إلى برلين واسطنبول أن أحصل على الكثير من تراث هذا الإمام الجليل ، وإنى أتطلع إلى اليوم الذى يصبح فى إمكان الباحثين وفى إمكان عامة المسلمين أن يطالعوا القشيرى من خلال « لطائف الإشارات » و « التيسير فى التفسير » وشكاية أهل السنة وغيرها من المخطوطات والمصورات التى يعد حصولنا عليها كاملة حدثاً علمياً له أهميته وخطره فالواقع أن بحثاً فى التصوف الإسلامى فى الشرق أو فى الغرب لا يمكن أن يتأسس إلا إذا استفاد من القشيرى ورجع إليه ويحتل القشيرى دائماً مكانه فى مثل هذه البحوث على أنه ممثل التصوف الإسلامى الحق ، فرأيه رأى سنى متحفظ ، أقبل على التصوف بعد أن نهل من العلوم الإسلامية وأتقنها وبرز فيها ، ثم حاول أن يدنو بالحقيقة من الشريعة ، وفى سبيل ذلك نَقَّى التصوف من كل دَخَل ، وأبعد عنه كل بدعة ، وابتعد به عن كل مظنَّة ، وكشف أغراض الأدعياء ، وأمراض الدخلاء فجاء التصوف بين يديه مشرقاً متألقاً يزيد وجه التدين نضارة ، ويملأ الحياة الروحية عطراً

ونشعر قبل أن نقدم لك هذا الأثر من آثاره « التحبير فى التذكير » أن نعرفك تعريفاً موجزاً بصاحبه ، ثم نوضح لك أهمية هذا الكتاب ومنهجه وغايته .

فأما القشيرى فهو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد ، وكنيته أبو القاسم ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيرى صاحب الرسالة

والقشيرى عربى النسب من ناحية أبيه ومن ناحية أمه ؛ فأبوه من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بربيعة بن عامر من هوازن ، ويذكر ابن حزم (أن سلالات من قشير اتجهت إلى الغرب نحو الأندلس إبان الفتح الإسلامى زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاة وقوّاد على خراسان ونيسابور)

أما أمه فسلميه أخت أبى عقيل السلمى (من وجوه دهاقين ناحية أُسْتُوا).

فى شهر ربيع الأول عام ٣٧٦ هجرية الموافق يوليو عام ٩٨٦ م ولد عبد الكريم فى استوا (بضم الهمزة وسكون السين وضم التاء المثناة أو فتحها وبعدها واو ثم ألف وهى ناحية بنيسابور كثيرة القرى خرج منها كثير من العلماء) ومات أبوه وهو طفل ، وعهدت به الأسرة إلى أبى القاسم الأليمانى ليعلمه العلوم الدينية والعربية ، ولقى التلميذ من معلمه عناية كبيرة حيث كانت تربطه بالأسرة صداقة وطيدة وفى فترة انتقال الحكم من آل سامان إلى الغزنويين وقعت البلاد تحت وطأة أزمة اقتصادية خانقة ، فعانت « استوا » من ثقل الخراج المفروض عليها واحتاج أهلها إلى طائفة من الخبراء فى المسائل الحسابية حتى يفيدوا فى إصلاح الأمور ، وكان عبد الكريم القشيرى ضمن من اختيروا للسفر إلى نيسابور فى هذه المهمة ، ولكن القدر كان قد اختار له طريقاً آخر ؛ فحينما ارتاد مجالس الوعظ والحديث والكلام والفقه والتفسير شغف بها حباً ، ولم يستطع عنها فكاكا وكانت نيسابور وقتئذ تزخر بلفيف من كبار الأئمة وأجلتهم أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبى بكر الطوسى ، وأبى اسحق الاسفرايينى ، الذين لقيهم القشيرى ، وثقف عليهم ، وأربت الصلة بينه وبينهم على الصلة العادية التى تربط التلميذ بأستاذه ، فقربوه منهم ، حيث أنسوا فيه علو الهمة ، واحترام النفس ، وعفة اليد واللسان فضلاً عن بديهة حاضرة ، وذكاء مفرط ، ودأب موصول .

وبينما القشيرى منصرف بكل قوته نحو هذه المجالس إذ بالقدر يأخذ به نحو وجهة أخرى ، وكان ذلك حين غشى لأول مرة مجلس الأستاذ أبى على الدقاق ، الذى كان يلقى دروساً فى الأحوال الصوفية ومقاماتها بمساجد نيسابور ، وشعر القشيرى أنه قد وجد بغيته فى هذه الدروس ، وأنها جديرة بأن يخصص لها كل وقته ، وينذر لها بقية عمره ، وتوثقت الصلة بينه وبين الدقاق ، حتى صار الدقاق ملهمه ، وقائد فكره ، والصديق الكبير الذى يعينه على تفهم الحياة والأحياء ، وكانت هذه الصلة من أعظم العوامل التى ساعدت على تكوينه العقلى والنفسى ، وعلى استقرار حياته فى هذه السن

المبكرة ، الأمر الذى ترك أعظم الأثر فى شخصية القشيرى الإنسان والباحث ، وأثمرت هذه الصلة ثمرة مباركة أخرى حين زوّجه الدقاق بابنته الوحيدة فاطمة ، التى أنجب منها ستة أولاد كلهم عبادلة ، وكلهم أئمة ، وابنة واحدة هى أمَةُ الرحيم أم عبد الغافر الفارسى المؤرخ الشهير لنيسابور.

ومن أعظم أصدقاء القشيرى الذين تركوا فى حياته آثاراً ملحوظة أبو عبد الرحمن السلمى صاحب طبقات الصوفية وحقائق التفسير ، وأبوالمعالى الجوينى إمام الحرمين وأستاذ الغزالى.

وقد وقعت للقشيرى محنة قاسية فى عهد السلطان طغرل ووزيره الكندرى ، وكان ذلك حين استصدر الكندرى أمراً من طغرل بسبِّ المبتدعة على المنابر فوافق على ذلك ، ولمّا كان الكندرى حقوداً لئيما يضمر أشد الكراهية للأشاعرة فقد حشر اسم الأشعرى ضمن المبتدعة ، وقامت قيامة الأشاعرة ، وكان القشيرى أعلاهم صوتاً ، وأشدهم غيظاً ، ونظراً لمكانته المرموقة فقد اتجهت رغبة الوزير الحقود فى تخصيصه بأبشع إهانة وأشر نكاية وذات يوم كئيب أسود جاء الأمر من قِبَل السلطان طغرل بالقبض عليه وعلى إمام الحرمين والرئيس الفراتى ونفيهم ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على القشيرى ، وأخذوا يجرونه فى الطرقات حتى وصل الشرطة به إلى محبس القهندر ، ولكن الناس أجمعت أمرها على تخليصه مهما كان بطش السلطان ، ودارت بين الطرفين معارك عنيفة تمّ النصر فيها للشعب على قوات السلطان ، وسكنت الفتنة مؤقتاً بخروج القشيرى من المحبس ، ولكنه وجد أن الخير فى مغادرة البلاد ، ليَسْلَم بعقيدته مادام البغاث قد استنسر فى وطنه ، ومضى يضرب فى الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة من ٤٤٥ إلى ٤٥٥ ، ولكنه كان حيثما حلّ موضع الإجلال والتكريم ، وفى بغداد لقى الخليفة القائم فأحسن استقباله ، وعقد له المجلس فى منازله الخاصة ، وكان يحضر دروسه ويواظب عليها ويستحسن آراءه ، وأتيح أن يقوم بالتدريس فى مساجد بغداد خلال عام ٤٤٨ هـ وما بعده ، وذلك طبقاً لرواية الخطيب البغدادى الذى كان أحد تلاميذه إبّان تلك الفترة وقال عنه « حدثتنا ، وكتبنا عنه ، وكان ثقة »

وحينما ذهب إلى الحج التقى هناك بجمع كبير من أئمة خراسان الذين هربوا من ديارهم على أثر تلك المحنة ، وكان منهم إمام الحرمين والبيهقى ، واتفق الجميع على أن يرشح عبد الكريم القشيرى ليقول كلمة فيما آل إليه أمرهم ، وأن كلمته لها الطاعة والاستجابة ، فصعد المنبر ، وظل يتكلم ثم مرّت لحظات صمت شخص فيها القشيرى إلى السماء ضارعاً ثم أطرق إلى الأرض لحظات أخرى ، والناس من حوله يتابعونه ويتفرسون وجهه ، ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ

« يا أهل خراسان ..بلادَكم بلادَكم ! إن الكندرى غريمكم يقطع الآن إرباً إرباً ، وإنى أشاهده الساعة وقد تمزقت أعضاؤه ثم أنشد

عميد الملك ساعدك الليـــالى   على ما شئت من دَرْكِ المعالى
فلم يك منك شىء غير أمـــرٍ   بلَعْن المسلمين على التـــوالى
فقـــابلك البـــلاء بما تـــلاقى   فذقْ ما تستحق من الوبال

ويقول السبكى فى طبقاته : (ضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندرى إرباً إرباً ، وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان)

وبمجىء السلطان ألب أرسلان خلفاً لعمه طغرل زالت المحنة وعاد القشيرى إلى وطنه وقضى فى كنف السلطان وفى كنف وزيره العظيم « نظام الملك » عشر سنوات مجيدة ، حافلة بالهناءة والرخاء والاستقرار ، فكثر إنتاجه ، وكثر مريدوه ، وزاد احترام الناس له

وما أن حلت الشهور الأولى من عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٤ م) حتى كان المرض والضعف قد انتصرا عليه ، ومع ذلك فقد كان يغالبهما فيؤدى صلاته قائماً وكان يصر على ذلك حتى آخر عمره وقبل أن تبزغ شمس السادس عشر من ربيع الآخر من ذلك العام صعدت روحه إلى بارئها ، فوورى جثمانه إلى جوار شيخه ورائده وصهره أبى على الدقاق فى مقبرة خاصة بأسرهم يزورها أهل نيسابور حتى وقتنا الحاضر .وقد أضفت الروايات عليه بعد موته نوعاً من التكريم ، فيقول السخاوى (إن أحداً لم يدخل بيته ولامس ثيابه

أو كتبه إلا بعد سنين طويلة من وفاته تعظيما له ، ويتفق ابن كثير مع السبكي على أنه (كانت له فرس يركبها قد أهديت له ، فلما توفى لم تأكل علفاً حتى نفقت بعده)

ورآه أبو تراب المراغي فى منامه فقال له «أنا فى أطيب عيش وأجمل راحــة »

* * *

هذه كلمة موجزة عن صاحب هذا الكتاب

وأمّا الكتاب فهو « التحبير فى التذكير » .

وبين أيدينا من هذا الكتاب نسختان إحداهما خطية (بدار الكتب المصرية — التيمورية الفن مجاميع ، الرقم ١٩٦ (مذيّلة فى نهايتها باسم ناسخها عبد المنعم سلامة الدنجاوى الشافعى الأزهرى (والثانية نسخة أكبر حجماً نقلناها من مخطوطة أقدم عهداً من الأولى موجودة فى مكتبة الفردوسى بمدينته دوشانبيه بالاتحاد السوفيتى ، وتقع بعد نسخها فى ثمان وسبعين صفحة ، وهى أوفى من النسخة المصرية وقد قوّمنا النص على النسختين ورمزنا للسوفيتية بالحرف (س) وللمصرية بالحرف (م)

وترجع أهمية «التحبير» إلى الفكرة الأساسية التى يعالجها وهى «دراسة الأسماء والصفات الإلهية » ، وليس أدلّ على عظم شأن هذه الدراسة ، وخطورتها من أن الغزالى — يقول فى مقدمة « المقصد الأسنى »

« سألنى أخ فى الله تتعين فى الدين إجابته شرح معانى أسماء الله الحسنى ، وتواردت علىّ أسئلته تترى فلم أزل أقدم فيه رِجْلا وأؤخر فيه أخرى ، تردداً بين الانقياد لاقتضائه قضاء لحق إخائه ، وبين الاستغناء عن التماسه ، آخذاً سبيل الحذر ، وعدولاً عن ركوب متن الخطر ،واستقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر ، وكيف لا وللبصير عن خوض مثل هذه الغمرة صارفان: أحدهما أن هذا الأمر فى نفسه عزيز المرام ، صعب المنال ، غامض المدرك فإنه فى العلو من الذروة العليا ، والمقصد الأقصى الذى تتحير الألباب فيه ، وتنخفض أبصار العقول دون مباديه فضلاً عن أقاصيه ، ومن

أين للقوى البشرية أن تسلك فى صفات الربوبية سبيل البحث والفحص والتفتيش ، وأنّى تطيق نورَ الشمس أبصارُ الخفافيش ، والثانى أن الإفصاح عن كنه الحق فيه يكاد يخالف ما سبق إليه الجماهير ، وفِطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير ، وجناب الحق يجل عن أن يكون مشرعاً لكل وارد ، أو يتطلع إليه واحد بعد واحد »(١) .

وللدراسة الأسماء والصفات الإلهية أهمية من ناحية أخرى ، فمعلوم أن المعتزلة ينفون الصفات الإلهية منعاً للتعدد والتركيب ، ولكن الأشاعرة ، كالقشيرى والغزالى وأضرابهما يثبتونها ، ويلتمسون لكل اسم ولكل صفة معنى ، وفى ذلك يقول القشيرى فى التحبير عند « السميع البصير » سمعه وبصره سبحانه وتعالى صفتان له ، زائدتان على علمه خلافاً للقدرية ، وهما إدراكاً آخران له ، فلا يخرج مسموع عن سمعه ، ولا موجود عن بصره ، ولا يحجبهما شىء ، فيسمع السر والنجوى ، ويبصر ماتحت الثرى ، ويرى فى لطائفه أن (القرآن يتحدث عن الله سبحانه مرة بذاته « ويحذركم الله نفسه » ومرة بصفاته « ألم يعلم بأن الله يرى) »

هى إذاً قضية كلامية ، ويكون للقشيرى بتحبيره فضل السبق فى نقلها من محيط المتكلمين إلى محيط الصوفية ، وصبغها بصبغة هذا المحيط الجديد ، ومن هنا تأتى أهمية « التحبير » إذ هو يوضح موقف الصوفية من قضية تناولها غيرهم ، فيكون الفرق بين منهجى التناول هو فى حد ذاته فرق بين علم التصوف وسائر العلوم ، وإذا كان الغزالى من بعد القشيرى قد شعر بالتهيب — كما أوضح النص السابق — حين شرع فى هذه الدراسة فالذى لا نكاد نشك فيه أنه استفاد من القشيرى فائدة ملحوظة حين كتب « مقصده الأسنى » ، وعلى هذا نمنح « التحبير » درجة أقصى من تقديرنا ، باعتباره عملاً رائداً فى موضوع خطير ؛ خطير فى ذاته وخطير فى فكرة نقله إلى جوٍ مباين للجو التقليدى الذى درج فيه ، ونلاحظ أن الغزالى قد تأثر القشيرى فسار على خطته ، ووفق ترتيبه ، واستخدم مثله اللغة والكلام والحديث

(١) المقصد الأسنى (الغزالى) أخرجه الشيخ محمود النواوى ج ١ الفنية المتحدة سنة ١٩٦١ ص ٢

وأقوال شيوخ الصوفية فى استنباط معارف من كل اسم وكل وصف ، ورتَّبَ على كل صنف من هذه المعارف المستنبطة آداباً وفضائل ولكن للغزالى فضل التفوق فى التفصيلات والتفريعات ، وهذه مسألة متوقعة فإن كتاب القشيرى عمل رائد ، والعمل الرائد غالباً ما يفتقر إلى الكمال

وإذا ضممنا المحاولة الغزالية إلى المحاولة القشيرية تألف منهما مجتمعين رد فعل متكامل يخرج من البيئة الصوفية ليحسم الرأى فى المشكلات والقضايا التى أثارها المتكلمون والفلاسفة حول موضوع من أخطر موضوعات الفكر الدينى

وينبغى أن يؤخذ هذا العمل المتكامل الذى تضافرت فيه جهود القشيرى والغزالى على أنه رأى التصوف الإسلامى الحق ، وأن نستبعد — إذا أردنا الإنصاف الآراء المتطرفة فى هذا الصدد ، ويكفى أن نذكر هنا مثلا واحداً لذلك وهو مذهب عبد الكريم الجيلى فى الموضوع ذاته ، فقد نظر الجيلى بمنظار مذهبه فى وحدة الوجود فأدَّى به إلى نتائج على جانب كبير من الخطورة ، مثل إرجاعه تعدد الأديان والمعتقدات إلى تعدد الصفات الإلهية ، وإلى الأسماء التى تجلى بها الحق فى مظاهر الخلق (فقد تجلى الحق بالإسم الهادى لقوم فهداهم ، وبالمضلّ لقوم فأضلهم ، ولو بقى اسم من الأسماء أوصفة من الصفات معطلاً لم يتحقق معناه فى صورة من صور الوجود ، ولكنّ تجلى الحق كامل ، ولهذا أرسل الله الرسل الذين يطيعونه فى صورة الهادى ، ويعبده الذين يعصونه فى صورة الاسم (المُضِل) ولكنه عين كل معبود يعبد)(١)

سار القشيرى فى دراسة الأسماء الحسنى حسب الترتيب الذى وردت فى الحديث الشريف المروى عن أبى هريرة إذقال (قال رسول الله صلى عليه وسلم إن لله تسعة تسعين اسما مائة إلا واحد إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار

(١) فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة د. عفيفى ص ٨٨

القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور(١).

وقد حرصنا على إثبات الحديث هنا حيث لم يذكره القشيرى فى تحبيره والخطة التى سلكها القشيرى فى دراسة الأسماء والصفات الإلهية تبدأ بمبحث لغوى موجز، يناقش فيه أصل اشتقاق الاسم أو الصفة، ومعى هذا الأصل، ثم المعى أو المعانى التى تطرأ عند انتقال اللفظة من الاستعمال الأصلى لها إلى استعمال أو استعمالات أخرى نتيجة التطور الذى تجتازه اللغة عبر الحياة وخلال العصور، ويخضع القشيرى معى الأسماء والصفات الإلهية إلى هذه التجوزات فى الاستعمال، ويكون محصل ذلك رصيد ضخم من المعانى تتفرع عنها مسألة هامة هى الغرض الرئيسى من الكتاب وتبدأ عادة بقوله (ومن آداب من عرف هذه المعانى أن يفعل كذا وكيت) نعم هذا هو الغرض الأصلى من الكتاب، فليس يكفى فى نظر المصنف أن نعرف، بل أن نتأدب بما نعرف، وبهذا لا يكون مبحث الذات الإلهية مجرد كلام نظرى وجدلى على نحو ما يصنع أرباب العلوم الظاهرية بل إن المقصود أن نعمل بما نعلم، ومرد ذلك إلى شخصية القشيرى الصوفى الذى يصر دائماً على أن العمل الإنسانى أصل أصيل فى المنهج العرفانى، وفى هذا رد ضمى على أن المعتزلة حين نفوا الصفات حرموا الإنسان من شىء كثير، هو طاقة العمل التى تتفجر من العلم، ومن الجهود التى تترتب على الجود.

ولا يقتصر صنيع القشيرى على ذلك بل يضيف إلى المباحث اللغوية

---

(١) المقصد الأسنى (الغزالى) ص ٣٢

رصيداً ثرياً من أقوال أئمة التصوف ، والآراء الكلامية ، والمواقف الفقهية ، فضلاً عن تفسير العديد من آيات الكتاب الكريم على نحو إشارى ، والاستشهاد بالأحاديث الشريفة فى مواضع كثيرة أى أن هذا الكتيب يصوّر أصدق تصوير منهج القشيرى الباحث الصوفى من ناحية والقشيرى المتكلم الأشعرى من ناحية أخرى وهذه وتلك الخصيصتان البارزتان فى منهجه فى التأليف بصفة عامة

ومن أهم الأصول التى استندت إليها خطة المصنف أنه يحاول أن يعود بالإسم أو الصفة الإلهية إلى واحد أو أكثر من هذه المصطلحات

(أ) اسم الذات

وهو اسم (الله) يقول (اسم ذاته سبحانه لم يسم ولن يسمى به إلا هو فهذا الاسم للتعلق دون التخلق)

(ب) صفة الذات

مثل الباقى (البقاء صفة من صفات الذات ، وتجب أن تشتد العناية بمعرفة أن المخلوق لا يجوز أن يكون متصفاً بصفات ذات الحق ، فلا يكون عالماً بعلم الحق ، ولا قادراً بقدرته ، ولاسميعاً بصيراً بسمعه وبصره ، ولا حياً بحياته ، ولا باقياً ببقائه لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة كما لا يجوز قيام الصفة الحديثة بالذات القديمة وهذا هو أصل التوحيد)

(ج) صفة الفعل

مثل (الوهّاب) و(الواهب المعطى والوهّاب مبالغة منه وهومن صفات الفعل)

ويرى القشيرى أن الوصف الواحد يصلح لينصرف إلى الذات تارة أو إلى الفعل تارة أخرى حسبما يقتضيه تأويل الاشتقاق (وصف الجبار إذا كان مأخوذاً من نخلة جبارة أى لاتنالها الأيدى فمعناه فى حقه أنه لا تناله يدٌ جائرة ، ولا ينازعه معارض ؛ فيكون من صفات ذاته لأنه إخبار عن وجوده على وصف السؤدد والجلال ، وقيل الجبار المتكبر من حيث المعنى ،

فالجبروت التكبر ، يقال جبار من الجبرية والجبروت ، إلا أن التكبر فى وصفه عز وجلّ محمود ، وفى وصف الخلق مذموم وهو بهذا المعى من صفات ذاته أيضاً وقيل الجبار بمعى المجبر وهو المكره يقال جبرته على الأمر وأجبرته بمعى واحد ، وإن كان أجبرته فى معى الإكراه أكثر وأشهر استعمالا من جبرته ، فمعناه فى حقه أنه لا يوجد من خلقه إلا ما يريده شاءوا أو أبوا فيكون من صفات الفعل

وقيل الجبّار بمعى المصلح من قولهم جَبَرْتُ الكَسْرَ إذا أصلحته وعلى هذا يكون من صفات الفعل أيضاً ، والاسم إذا احتمل معانى مما يصح فى وصفه سبحانه فمن دعاه بذلك الإسم فقد أثنى عليه بجميع تلك المعانى)

ويذهب القشيرى فى تحبيره إلى ان للوصف دلالة نسبية ، فقد يوصف به الحق فيفيد معنى او معانى مطلقة يتنزه بها عن الإنسان ، وقد يوصف بها الإنسان ولكنها عندئذ تفيد معانى تليق بالمحدث النسبى المتكثر ويتعالى الإله عنها ، فمثلاً يقول فى الملك (ورد فى القرآن العزيز الملك ، ومالك الملك ، ومالك يوم الدين ، والمليك وهو مبالغة من المالك كالعليم من العالم ، والمالك مشتق من الملك وأصل الملك فى اللغة الشد والربط ومنه قولهم ملكت العجين إذا بالغت فى عجنه ، ومنه سمى عقد المصاهرة املاكا ؛ لأنه تربط به الوصلة بين الزوجين ، حقيقة الملك عند أهل التحقيق القدرة على الإيداع والإنشاء ، فلا مالك فى الحقيقة إلا الله ، وهو فى غيره مجاز ، فإذا ثبت لزم العبد ان يتبرأ من الإضافة إلى نفسه ، فلا يقال لى ولا لى ولامى ، ولهذا قيل التوحيد إسقاط الياءات يعى ياءات الإضافة إلى نفسه)

ويلتمس القشيرى فى « تحبيره » فروقاً دقيقة بين الأوصاف الإلهية المتقاربة او المترادفة حى يثبت حسب الأصول الأشعرية ان كل وصف جىء به لمعنى ولغرض ، وأن المعانى والأغراض تتجدد وتتنوع ، فمثلا هناك فرق فى المعى يوضحه القشيرى بين كل من المعطى والوهاب ، وبين العفو والغفور ، وبين الحسيب والكافى ونحو ذلك ولهذا فإن لكتاب التحبير قيمة عند الصوفى الذى يحتل (ذكر) اسم الله فى رياضته مكانة هامة ، ومادام الذكر يبدأ بترديد اللسان ثم الذكر بالقلب فليس ثمة أفضل من ذكر ينبى

على التأمل فى المعانى ، وما يندرج تحتها من الآداب والفضائل ، فكأن الصوفى بعد قراءة التحبير سيجد المجال فسيحاً لفقه ما يردده لسانه ، ويكون عملُه فى هذه الحالة شيئاً ذا قيمة معرفية ، ويكون احتمال تأثيره على سلوكه مؤكداً وطالما فطن الصوفية إلى ذلك ، فنبهوا تلاميذهم إلى أن أخف انواع الذكر ذكر اللسان يقول قائلهم

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى(١) فلو قرأ الصوفى ما يقوله القشيرى فى (الغفار) للاحظ شيئاً له خطره فى مقام من مقامات الطريق وهو (التوبة) بل إن قراءة النص لايتوقف مدى تأثيرها على الصوفى وحده وإنما هى ذات تأثير على كل وجدان دينى ؛ صوفياً كان أو غير صوفى وهذه إحدى خصائص المنهج القشيرى كما نوّهنا من قبل .

يقول القشيرى (وفى بعض الأخبار عبدى لو أتيتنى بتراب الأرض ذنوباً أتيتك بتراب الأرض مغفرةً مالم تشرك بى ، وفى خبر مسند أنّ رجلاً يؤمر به إلى النار فإذا بلغ ثلث الطريق (انظر النص فى الكتاب فيما بعد)

وأولى القشيرى عنايته بالأسماء الإلهية التى لها موحيات خاصة فى البيئة الصوفية كالحق والولى والمحيى والبديع والجميل والجليل ونحوها ، ونستطيع أن نضم اقواله هنا فى هذه الأسماء والأوصاف إلى ما يقوله فى مصنفاته الصوفية الصرفة عند حديثه عن الحياة والموت والبدعة والجمال والجلال ونحوها فيتحصل لدينا رصيد متكامل إذا أردنا أن نستوضح المصطلح الصوفى عند القشيرى فمما يقوله عند « الحق » وأكثر ما يجرى على لسان هذه الطائفة من أسمائه سبحانه وتعالى «الحق»،لأنهم ارتقوا من شهود الأفعال إلى شهود الصفات ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات ، فمن عرف أنه ذو الحق آثر حقه على حقه ، وعلامة صدقه فى ذلك الإيثار أن يسخر له خلقه المبين فى وصفه وهو الذى يوضحه الحق بقلبه فيميزه عن الباطل بالحجج والبراهين ، ويبين له من مكنونات العدم مالم يخطر ببال أحد

(١) التعرف للكلاباذى ص ٧٤

من دقائق آثار الحكمة وعجائب متعلقات القدرة ، ويبين لقلوب الواجدين على الخصوص شهود الربوبية عما يزيل الشبهة (وتستطيع هنا أن تدرك أى فرق هائل بين الصدى الذى تتركه لفظة (الحق) فى تصور هذا الصوفى السني الحريص وبين الصدى الذى يتردد فى جنبات وادٍ آخر من أودية التصوف الإسلامى وأعنى عند أرباب وحدة الوجود ، أولئك الذين يفهمون أن (الحق) تعنى أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله وأن الوجود لغيره باطل ، فالله هو كل شيء والموجودات لا حقيقة لوجودها ، وإذا وصف المتكثر النسبي بالوجود فإنما على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة ويمضى أهل وحدة الوجود فى نظريتهم إلى البحث فى تجلى الله فى الموجودات الأرضية والسماوية ، وبهذا يكون تمام كماله وجلاله وجماله ، أمّا ما نشهده فى العالم من نقص وزوال فذلك لا يؤثر فى العظمة الإلهية إنما هو من قبيل أحكام التعين والتنزل والإنزال(١) ، وفى ذلك يقول ابن عربى (الظاهرون بأمر الله لا يرون سوى الله فى الأكوان ، والأكوان عندهم مظاهر الحق(٢))

ويقول القشيرى فى (الولى) « الولى فى وصفه سبحانه هو المتولى لأحوال العباد وأعمالهم ، وهو فعيل بمعى فاعل يقال فلان ولى فلان يليه ولاية فهو والٍ أى نصير ، وإنما سمى أولياء الله لأنهم أنصار دينه ، وأشياع طاعته ، وقد يكون الولى فى وصف العبد بمعى المواظب على الطاعة ، وتكون الولاية بمعى المحبة ، والله ولى المؤمنين أى محبّهم »

ويتضمن هذا الرأى اتجاهاً هاماً نحو تحديد معى الولاية ، وأبرز ما يتجلى فيه أن صاحبه يحاول أن يربط الولاية بالطاعة ، أى أن الولاية ليست مسألة جزافية يمكن أن يتصف بها أى إنسان ، فيخرج من نطاقها أولئك الأدعياء الذين يقترفون أعمالا خارجة عن مألوفات الناس وبعيدة عما

---

(١) انظر معجم Larouse مادة Pantheisme

وانظر كتاب (الوحدة الوجودية) لبهاء الدين العاملى

(٢) الفتوحات حـ ٢ ص ١٥

تأمر به الشريعة أو تنهى عنه بدعوى أنهم محو ، وليس للناس عليهم عتب ولا لوم ، كذلك يتضمن هذا الرأى اتجاهاً نحو تفاؤل القشيرى بالنسبة للعصاة ، فهو يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام التائب ، وكيف أن الله سبحانه يتقبله ويتولاه بإحسانه وغفرانه ، وتتجلى هذه النزعة الأخيرة كذلك عند شرح القشيرى للأسماء والأوصاف الإلهية التى لاتحمل فى البيئات التقليدية أكثر من المعانى المقبضة المخيفة مثل (المنتقم) و (الجبار) و (الضار) و (المانع) (والمميت) فتأخذهذه الأوصاف طريقاً فى الفهم والتصور عند المصنف يدل على مبلغ انفساح فرص الأمل والرجاء عند الصوفية ، ومدى ما يمنحونه من إسعاد وإنعاش للوجدان الديني ، ومن أقواله فى (المنتقم) الانتقام افتعال من النقمة وهى غاية الكراهية للشىء وغاية العقوبة عليه أيضاً ، والله تعالى يغضب فى حق خلقه مما لايغضب فى حق نفسه ، فينتقم لعباده مما لا ينتقم لنفسه فى خاص حقه ، وقد يستجير العبد بربه عقيب زلة فتدركه الوجهة قبل حلول الانتقام ، فيؤويه إلى كنف ستره ، ويعجّل له المغفرة بلطيف بره والجبّار (عنده) هو الذى يجبر الكسر أى زلة العبد و (المميت) عنده يقابل (المحيى) ولكن هذه المقابلة على أساس أن (أهل هذه الطائفة أطلقوا لفظى الإحياء والإماتة على حالتى الفرحة والترحة ، والمنحة والمحنة تجوزاً وتوسعاً كما يقال فلان أحيا فلانا بجوده ، وأمات فلاناً بصده عنه ، لهذا قال أهل الحقيقة من أقبل على الحق أحياه ، ومَنْ أعرض عنه أماته وأفناه ، ومن كان فناؤه فى الله فهو حى وان هلك ، ومن كانت حياته فى المخالفة فهو ميت وإن عاش)

وكان شرح (البديع) فرصة طيبة انتهزها المؤلف لينادى بما عرف عنه من مقاومة شديدة وعداء صارخ للبدعة والمبتدعين (البديع معناه المبدع ، وكل من فعل فعلاً لم يسبق إليه فهومبدع ومنه سميت البدعة ، لأنها قول لم يسبق إليه قائله ، فالله تعالى مبدع الأشياء لاعلى مثال تقدم ، ولا من أحد تعلّم ومن آداب من عرف ربه بهذا الإسم أن يجتنب البدعة ، ويلازم السنة ، فالبدعة كل ما ليس له أصل فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة)

ويساعد كتاب « التحبير » بطريق مباشر على تفسير بعض قضايا التصوف ، فمثلاً قولة الحلاج المشهورة (أنا الحق) يمكن — فى نظرنا — اغتفارها إذا استفدنا من موقف القشيرى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، فالحلاج لم يقل (أنا الله) و(الله) هو الاسم الذى ليس لأحد أن يتصف به أو يتسمى به لأن كما يقول القشيرى (للتعلق دون التخلق) ، أما ماعدا ذلك فيمكن على سبيل التوسع والتجوز وصفُ الإنسان به أو إطلاقُ الإسم عليه ، ويكون للوصف وللإسم دلالة نسبية تتلاءم والإنسان ، وتختلف مع ما تشير به أو تقتضيه عند إطلاقها على الذات الإلهية فكأن الحلاج — لو طبقنا هذا الفهم — لم يرتكب إثما ، وبالتالى لا تثريب عليه ، ولا يكون الحلاج — فى ضوء ذلك — سوى عارف بالله جرت المعرفة على لسانه على نحو ما يصف القشيرى فى موضع آخر من تحبيره (المعرفة تقتضى استصغار — الأقدار — سوى قدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سكت سكت به)

وإذا كانت بعض الفلسفات المتأثرة بالثقافة اليونانية تضع ضمن مبادئها التشبه بالخالق — عزّ وجلّ — فى حدود الطاقة البشرية فإن القشيرى قد أبان فى تحبيره نماذج لآداب عظيمة ، مستوحاة مباشرة من معرفة الأسماء والصفات الإلهية بحيث لو استجمع الصوفى هذه الآداب كان متخلقاً بفضائل تعينه على أن ينمحى عن الآثار والأغيار ، وتعينه على أن يحث خطاه نحو العتبات الإلهيـة .

دكتور ابراهيم بسيونى

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسر

هذا كتاب « التحبير فى التذكير » الذى ألفه الإمام ، العالم العامل ، الزاهد العارف أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى قدس الله روحه ، ونوّر ضريحه

« فصل (١) » قوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى » ، وصفها بالحسنى لما تتضمنه وتدل عليه من صفات العلو والعظمة والكبرياء ، أو لما يستحقه الذاكر لها ، والداعى بها من جزيل الثواب وحسن المآب

واشتقاق الاسم من السمو أو من السمة ؛ فمن عرف أسماء الله تعالى يجب اتصافه بها ، فتعلو همته عن عبودية غير الله ، فتتم بذلك عبوديته ومن عرف اسم ربه نسى اسم نفسه ، وتنعّم بروح أُنْسه ، قبل وصوله إلى دار قدسه ، وسمت رتبته ، وعلت فى الدارين منزلته ؛ فمن أجَلَّ قَدْرَ الله أجَلَّ الله قدره قيل إن بِشْراً الحافى(٢) كان فى بدايته من الشطّار فرأى يوماً قرطاساً فيه اسم الله تعالى مكتوب ، فرفعه ونظّفه واشترى بدرهم طيباً فطيّبه ، فقيل له فى النوم يا بشر ، طيَّبْتَ اسمى فوَعِزَّتى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة وقيل لبشر لِمَ تمشى حافياً ؟ قال لأنّ الأرض بساطه فأعظم ببساطه ! قيل لم يخرج من الدنيا أحد مثل

---

(١) فى مووردت (فصل) .

(٢) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافى من مشاهير زهاد مرو ، سكن بغداد ، ومات بها عام ٢٢٧ هـ ، وكان كبير الشأن حتى قيل لم يخلق بعده مثله ، ومن أقواله لا يحتمل الحلال السرف ، ولا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس (طبقات السلمى)

ما خرج (١) منها بشر لأنه وَهَبَ ثوبه فى مرضه ، ومات فى ثوب استعاره .

قيل لبعضهم متى يصير الفتى بليغاً ؟ فقال إذا ذكر محبوبه فأثنى عليه ، وقيل يصدق عكس هذا

« فصل » قوله تعالى « فاعبده واصطبر لعبادته » ، يدل على أن الحال وإن صفت لا تكفى إلا باقتران صفاء(٢) العاقبة بها ، ولهذا قيل لا يغرّنكم صفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات وقيل فى معناه

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القدر
وسالمتْكَ الليالى فاغترت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

فكم من شجرة أورقت وأزهرت وما أثمرت ، وكم من مشهور بعبادته مغرور بصفاء حالته ، بدا له من خفايا سابقته ما لم يكن فى حسابه نعوذ بالله من سوء الخاتمة والاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ، ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له ، وقيل فى معناه

أخْلِقْ بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمنِ القَرْعِ للأبواب أن يلجا

وقيل أيضاً

وقل من جدّ فى أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

قوله تعالى « ليس كمثله شىء » ، قال الواسطى : « ليس كذاته ذات ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ » وهذا القول يجمع جوامع مسائل التوحيد

تبارك وتعالى قيل تعظّم وتقدس ، وقيل تفاعل(٣) من البركة وهى النفع والزيادة ، وقيل الخير الكثير فى كل شىء ، وكل آية احتملت وجوهاً وليس بينها تناف ولا تضاد(٤) ولا انعقد الإجماع على أن المراد منها البعض فهى على العموم ، وكل من ذكر الله بإسم من أسمائه ، وأثنى عليه

(١) وردت فى م (مثل ما دخل فيها) والأصح هو هذا الذى ورد فى س لاستقامة المعنى به

(٢) وردت فى م (وفا) والمعنى يستقيم بما ورد فى (س) .

(٣) فى م وردت (منه) والأصح كما جاء فى س .

(٤) فى م وردت (ولا تضرر) ، والمعنى لا يستقيم بها

ينعت من نعوته لزمه أن يطالب نفسه بمقتضى ذلك الإسم ، وموجب ذلك الذكر

عن جعفر الصادق : «من طلب مالم يخلق تعب ولم يرزق. قيل وماذلك؟ قال الراحة فى الدنيا » ، وقيل فى معناه

يطلب الراحة فى دار الفنـــا خاب من يطلب شيئاً لايكون

« فصل » فى معنى اسم « الله »

قيل إنه غير مشتق وهو أحد أقوال الخليل ، ويحكى أن الشافعى رضى الله عنه أنه قال به ، وكثير من أهل الحق ولم يُسَمّ به غيره تعالى وتقدّس ، ولهذا قال بعض المشايخ كل اسم من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الإسم فإنه للتعلق دون التخلق

وقيل هو مشتق ، ثم اختلفوا فى المعنى الذى هومشتق منه اختلافاً كثيراً موضعه كتب العربية .

قيل قلّ من يوقف الدعاء عن الإخلاص — ثم لا يُستجاب له ، حكى أن رجلاً باع جارية فندم على بيعها ، واستحيى أن يُظْهِرَ حالته للناس فكتب حاجته فى كفّه ، ورفعها إلى السماء ، فلما أصبح قرع الباب عليه رجلٌ ، فقال له من أنت ؟ فقال مشترى الجارية ومعى الجارية

فقال إن كنتَ تردها فاصبر حتى أردّ لك الثمن .

فقال لاأريد الثمن ، فإنى أخذت خيراً منه ، لأنى رأيت البارحة فى منامى يقول الله تعالى إن البائع ولىٌّ من أوليائنا ، وقد تعلق قلبه بها ، فإن رددتّها عليه أدخلناك الجنة

كان الشبلى(١) يقول كثيراً يادليل المتحيرين زدنى تحيراً

---

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى خراسانى الأصل ، بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من أسروشنة ومولده كما قيل سامرا ، تاب فى مجلس النساج ، وصحب الجنيد ، وكان فقيها على مذهب مالك عاش سبعاً وثمانين سنة وتوفى عام ٣٣٤ هـ ، وللشبلى أقوال جليلة الشأن فى المقامات والأحوال ، وله أيضاً شطحات ، وله أشعار كثيرة فى الحب الإلهى (عن طبقات السلمى) .

وقال ذو النون المصرى(١) رحمه الله المعرفة أولها التحير ثم الاتصال ثم الافتقار ثم الحيرة .

قال يحيى بن معاذ(٢) رحمه الله لو دارت ألسنة العارفين مع الناس كماتدور قلوبهم مع الله لقيل إنهم مجانين

وعلامة صحة العارف ألا يقع منه فى أحكام الشريعة تقصير فى جميع أحواله ، فإن من لم تحفظ له أوقاته فى أداء ماكلف به — وإن كان مغلوباً — فذلك لنقص فى حاله .

وقيل للشبلى ما علامة صحة حالك ؟ فقال إنه لايجرى علىّ فى حال الغلبة ما يخالف حال الصحو.

قال يحيى بن معاذ ما أشد تعلق الرياء بالقلوب ! فإنه لو دخل عليك صبى لتغيرت لأجله ، وحسّنت ظاهرك بسببه !

قال المشايخ من أعجب بنفسه حجب عن ربه ، والإعجاب هو رؤية المقام ، واستكبار القدْر والجاه ، واستكثار الطاعة والنظر إليها ، ونسيان بالحضور والإخلاص ولو لم يكن لترك الإعجاب موجب إلا قصة المعاصى السالفة فى جميع العمر بالنظر إلى طاعة تندر أحيانا ، ولاتتصف الحضور والإخلاص ولو لم يكن لترك الإعجاب موجباً إلا قصة إبليس حيث قال :أنا خير منه ، فجرى عليه ماجرى .وقصة قارون حين خرج على قومه فى زينته معجباً مفتخراً فخسف به ، وقصة فرعون حين قال : « أليس لى ملك مصر » — لكان فى ذلك كفاية فى الزجر والمنع .

وفى بعض الكتب إن السمكة التى عليها الأرضين أعجبت بنفسها كيف أطاقت حمل الأرضين مع ثقلها فقيّض الله تعالى لها بعوضة لسعت أنفها فأصابها وجع شديد فسكنت والبعوضة بين عينيها لاتجسر السمكة أن تتحرك من خوفها

---

(١) ذو النون المصرى اسمه ثوبان وقيل الفيض بن ابرهيم كان أبوه نوبياً توفى ٢٤٥ هـ ، ورد المتوكل فى سعاية فلما وعظه بكى المتوكل ورده مكرماً إلى مصر ، ولذى النون آراء عظيمة فى المعرفة والعارف تزخر بها رسالة القشيرى وطبقات السلمى

(٢) يحيى بن معاذ الرازى خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها عام ٢٥٨ هـ وهو نسيج وحده فى وقته وله لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة (رسالة القشيرى)

ومن أوصاف العارف ألا تأخذه فى الله لومة لائم ؛ فيكون بالحق ناطقاً ، وبحق الله قائماً ، وفى دين الله قوياً ، لأن المعرفة تقتضى استصغار الأقدار سوى قدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سكت سكت به ، وأفضل الأشياء كلمة حق عند من يُخاف ويُرجى

وحكى أنهم فيما مضى كانوا يعبدون شجرة ، فخرج رجل مؤمن من بيته وأخذ معه فأساً ليقطع تلك الشجرة غيرة فى الدين وحمية ، فتمثّل له إبليس فى صورة رجل ، وقال إلى أين تذهب ؟

فقال أقطع تلك الشجرة التى تُعبَد من دون الله فقال له أتركْ وأنا أعطيك كل يوم درهمين ، إذا استيقظت وجدتها تحتِ وسادتِك ، فطمع الرجل وتركها وانصرف ، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئاً ، هكذا ثلاثة أيام ، فخرج مغضبا ومعه الفأس ليقطعها ، فاستقبله إبليس فقال إلى أين تذهب ؟ فقال أقطع تلك الشجرة ، فقال إرجع فلو دنوت منها لقطعت عنقك ! لأنك فى المرة الأولى أتيتَ خشيةً لله فما كان أحد يقدر على منعك ، وفى هذه المرة أتيت بداعية الغضب الذى بدا لك من فوْت الحظ فى الدراهم ، فارجعْ فإنك لاتقدر عليها !

ومن أوصاف العارف أن يحتمل الأذى بطيب نفْس من كل الخلق ، ولهذا قال سهل بن عبد الله التُستَرى(١) «الصوفى من كان دمه هدراً وملْكه مباحاً » واعلم أن الخلْق فى الدنيا جيرانك أو رفقاؤك فى سفر الآخرة فأحسنهم خُلُقا أشرفهم قدْرا حكى عن مالك بن دينار أنه استأجر داراً من يهودى ، فحوّل اليهودى كنيفه إلى بيت يلى جدار تلك الدار ، وكان الجدار مشقوقاً ، وكانت النجاسة تدخل إلى دار مالك ، وتقع فى محرابه ، وقصد اليهودى بذلك إيذاء مالك ، ومالك ينظف محرابه كل يوم من تلك النجاسة ويكنسها ولا يقول لليهودى شيئاً ، فتعجّب اليهودى

---

(١) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال توفى عام ٢٨٣ أو ٢٩٣ ومن كلامه الناس نيام فإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . الله قبلة النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا (طبقات السلمى)

من صبره ، فدخل عليه يوماً وقال ما الذى صبّرك على مقاساة هذه المشقة ؟ فقال قول نبيِّنا (ص) مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه فأسلم اليهودى وحسن إسلامه

وأمّا أقوال شيوخ الصوفية فى معنى هذا الإسم (اسم الله) فكثيرة ، وأكثرها رموز تحتاج إلى بيان وتفسير ، فمن ذلك قول الشبلى ! ! ماقال أحدٌ الله سوى الله ؟ ، أى لأن كل من قاله قاله بحظٍّ ومتى تدرك الحقائق بالحظوظ ؟ ! معناه أن ذكر الخلق له لا يشبه ذكره لذاته المقدسة ، والشيء الذى يقل قدره يُعد لاشيء بالإضافة ، إلى ماله قدر وقال أبو سعيد الخراز(١) من الذاكرين من جاوز حظوظ نفسه ، ووقع فى نسيان حظه من الله تعالى ، ونسيان حاجته منه جلّ سناؤه ، فلو تكلمت أعضاؤه وجوارحه ومفاصله لقالت الله الله الله ، أصاب أحدَهم حَجَرٌ فى رأسه فشجّه فوقع دمه على الأرض فانكتب على الأرض الله الله وحكى أن أبا الحسين النورى(٢) بقى سبعة أيام قائماً لم يأكل ولم يشرب ولم ينم ، وهو يقول الله الله فأخبر الجنيد بذلك فقال أنظروا ..أمحفوظةٌ عليه. أوقاته أم لا ؟ فقيل له إنه يصلى الفرائض فقال الحمد لله الذى لم يجعل للشيطان سبيلا ثم قال قوموا نَزره فإما نستفيد منه أونفيده ، فدخل عليه فقال يا أبا الحسن ما الذى دهاك ؟

فقال أقول الله الله زيدوا علىّ

فقال له الجنيد انظر هل قولك الله بالله أم بقولك أنت ؟ فإن كان بالله فلست القائل له ، وإن كان قولك لنفسك فأنت مع نفسك فما معنى الوله والحيرة ؟

فقال نِعمَ المودب أنت وسكّن ولهه

***

(١) الخراز من أهل بغداد صحب ذا النون والسرى مات ٢٧٧ هـ من أقواله كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل وقال صحبت الصوفية ما صحبت فما وقع بينى وبينهم خلاف قالوا لم ؟ قال لأنى كنت معهم على نفسى (رسالة القشيرى)

(٢) النورى خراسانى الأصل صحب السرى والقصاب توفى عام ٢٩٥ هـ (طبقات السامى)

وقال بعضهم الألف من هذا الاسم (يعنى الله) إشارة إلى الوحدانية ، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة ، واللام الثانية إلى محو المحو فى كشف الهاء

وحكى أن الشبلى قال فى مجلس الجنيد فى وله : (الله) فقال له الجنيد يا أبابكر الغيبة حرام قيل معناه إن كنت غائباً فذكر الغائب غيبة ، وإن كنت حاضراً فهو ترك الحرمة

وقال أبو سعيد الخرّاز قلت لبعضهم ماغاية هذا الأمر ؟

فقال (الله) قلت ما معنى قولك (الله) ؟

قال معناه اللهم دلنى عليك ، وثبتنى عند وجودك ، ولا تجعلنى ممن يرضى بجميع ماهو دونك عوضاً عنك ، وأقر فؤادى عند لقائك

« فصل » فى معنى « لا إله إلا الله »

فى الخبر من قال آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وفى الخبر لا إله إلا الله مفتاح الجنة وإنما يكون العبد قائلاً لا إله إلا الله فى الحقيقة إذا كان قائلاً بقلبه ، وفى الخبر من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة ، إذا كان عارفاً ، معناه إذا كان عارفاً بربه ، وكل الناس يحملون قوله مخلصاً على أنه أراد إذا مات على الإخلاص وأهل الإشارة قالوا إذا كان مخلصاً فى الحال فى قوله كان داخلا فى الحال فى جنته ، قال الله تعالى «ولمن خاف رب جنتان » ، قيل جنة معجلة وهى حلاوة الطاعات ، ولذة المناجاة ، والأنس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة وهى فنون المثوبات ، وعلو الدرجات

قال بعض المشايخ معنى لا إله إلا الله نفى ما يستحيل كونه وإثبات ما يستحيل فقده

وقال رجل لبعضهم لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله ؟فقال لا أنفى به ضداً فقيل : نريد أعلى من هذا فقال لا تجرى على لسانى كلمة الجحود فقيل نريد أعلى من هذا فقال قل الله ثم ذَرْهُم ، وزعق فخرجت روحه ، فادّعى أولياؤه على الشبلى دمه وحملوه إلى الخليفة ، فأرسل إلى

إلى الشبلى من يسأله عن دعواهم ، فقال الشبلى روحٌ حَنَّتْ ورجت(١) ، فدُعِيَتْ فأجابت فما ذنبي؟ فصاح الخليفة من وراء الحجاب خلوه.. لا ذنب له

«فصل» فى معنى اسمه «هو»

إعلم أن هذا الاسم عند هذه الطائفة إخبار عن نهاية التحقق ، وهو عند أهل الظاهر مبتدأ يحتاج إلى خبر ليتم الكلام ، وعند أهل الطريق لا يحتاج لأنه مفيد ولأنه كلام تام بدون شيء آخر يتصل به أويضمرو ذلك لاستهلاكهم فى حقائق القرب ، واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم فلا يسبق إلى قلوبهم غيره ، ويكتفون به عن كل بيان .

قال الإمام أبو بكر به فورك(٢) قدس الله روحه : (هو) حرفان هاء وواو ؛ فالهاء تخرج من أقصى الحلق وهو آخر المخارج ، والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج ف (هو) إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى «هو الأول والآخر» ؛

وقال بعضهم رأيت بعض الوالهين فقلت : ما اسمك ؟ فقال : هو ، فقلت : من أنت ؟ فقال هو ، فقلت مَنْ ابن يحيى ؟ فقال هو ، فقلت من تعنى بقولك هو فقال هو ، فما سألته عن شيء إلا قال هو ، فقلت لعلك تريد الله ، فصاح وخرجت روحه .

وقال بعض أهل الإشارة إن الله تعالى كاشَفَ الأسرار بقوله «هو» ، وكاشف القلوب بما عداه من الأسماء(٣)

---

(١) هكذا فى (س) أما فى (م) فهى (ورنت) .

(٢) هو شيخ من شيوخ القشيرى فى الأصول والكلام ، وفد إلى نيسابور قادماً من العراق ، فالتف من حوله الخاصة والعامة ، وصفه عبد الغافر الفارسي حفيد القشيرى بأنه ذو بركة ، ويستسقى به ، ويستجاب الدعاء عنده (طبقات الشافعية للسبكى ، وفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٣) القشيرى يرتب الملكات الباطنية تنازلياً على هذا النحو سر السر ، السر ، الروح القلب ثم النفس والعقل .

وقيل كاشف الهُيّم(١) بقوله « هو » ، والمهيمين بقوله « الله » ، والعلماء بقوله « أحد » والعقلاء بقوله « الصمد » والعوام بقوله « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(٢)

« فصل » فى معنى اسم « الملك »

ورد فى القرآن العزيز الملك ، ومالك المُلك ، ومالك يوم الدين ، والمليك ؛ قال تعالى « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » ، وهو مبالغة من المالك كالعليم من العالم ، والمالك مشتق من الملك ، وأصل الملك فى اللغة الشد والربط ، ومنه قولهم ملكت العجين إذا بالغت فى عجنه ، ومنه سمى عقد المصاهرة إملاكا لأنه تربط به الوصلة بين الزوجين ، وتحقيق الملك عند أهل التحقيق القدرة على الإبداع والإنشاء ، فلا مالك فى الحقيقة إلا الله وفى غيره مجاز ، فإذا ثبت لزم العبد أن يتبرأ من الإضافة إلى نفسه ، فلا يقول بى ولا لى ولامى ، ولهذا قيل التوحيد إسقاط الياءات يعى ياءات الإضافة إلى نفسه

وقيل لبعض المشايخ ألك رب ؟ فقال أنا عبد وليس هو مولى لى ، من أنا حتى أقول لى ؟!

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين سلنى حاجتك

قال كيف تقول لى هذا ولى عبدان أنت عبدهما ؟!

قال ومن هما ؟

قال الحرص والهوى ، فإنى غلبتهما وغلباك ، وملكتهما وملكاك !

وقيل فى قوله تعالى « ربّ قد آتيتنى من الملك » ، إنه أراد به ملكه على نفسه حيث لم يطع شهوته(٣) حين راودته امرأة العزيز

وقال بعضهم مررت بعسقلان فوقع بصرى على امرأة جميلة فمال قلبي

---

(١) الهيم جمع هائم مثل الخشع جمع خاشع

(٢) هذا لون من التفسير الإشارى الذى عرف القشيرى

(٣) فى م (لم يطمع شهرته) ولا يستقيم بها السياق

اليها ، فاستعنت بالله واتقيت ، ومررت فرأيت فى تلك الليلة يوسف عليه السلام فقلت الحمد لله الذى عصمك من امرأة العزيز فقال الحمد لله الذى عصمك من العسقلانية .

ومن عرف أنه تعالى المتفرد بالملك أنِفَ أن يذل المخلوق ؛ لأن المعرفة بحقيقة ملكه توجب التجرد له فى التقرب اليه وتوجيه القصد نحوه فقط

قال بشر الحافى رحمه الله رأيت أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه فى فى المنام فقلت عظنى يا أمير المؤمنين .

فقال ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً لثواب الله تعالى ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله جل جلاله فقلت زِدْنى يا أمير المؤمنين فقال

قد كنت ميتا فصرت حيا وعن قريب تصير ميتا
عزّ بدار الفنـــاء بيتٌ فـابْـنِ بدار البقاء بيتـــا

قيل من أمارات التوحيد الثقة بالموعود ، وكثرة العيال على بساط التوكل ، وقيل من آداب من يكون واثقاً بما عند الله ألا يتوقف فى الإنفاق والبذل لتحققه أن الخَلَف من الله سبحانه وتعالى معجّل ، وجميل العقبى مؤجل حكى أن حاتماً الأصم(١) كان صائماً فلما أمسى قدم إليه عشاؤه ، فجاء سائل ، فدفعه(٢) اليه فحمل إليه فى ساعته طبق عليه ألوان الأطعمة والحلوى ، وجاء سائل آخر فدفعه إليه فحمل إليه فى الوقت صرة فيها دنانير ، فصاح : الغوث من خلف ! !

---

(١) هو حاتم بن علوان من أكابر مشايخ خراسان ، تلميذ شقيق البلخى واستاذ ابن خضروية سمى كذلك لأنه تصام حين جاءت امرأة لتسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها فى تلك الحالة صوت فخجلت ، فقال حاتم ارفعى صوتك فأرى من نفسه أن أصم فسرت المرأة بذلك . ومن أقواله عافيتى فى يوم ألا أعصى الله فيه ، ومن دخل مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت موتاً أبيض وهو الجوع ، وموتاً أسود وهو احتمال الأذى من الخلق ، وموتاً أحمر وهو العمل الخالص من الشوب فى مخالفة الهوى ، وموتاً أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض (الرسالة)

(٢) فى م (فرفعه) ولا يستقيم بها السياق .

وكان فى جيرانه رجل يسمى خَلفاً ، فاجتمع الناس عليه ، وقالوا لمَ تؤذى الشيخ ؟

فقال إنى لم أعنِه ، وانما عجزت عن شكر الله تعالى على ما يعجّل لنا من الخَلَف

« فصل » فى معنى اسمه « القدوس »

فعول من القدس ، وهو الطهارة ، والتقديس التطهير ، ومنه الأرض المقدسة أى المطهرة ، ومعناه فى صفة الله تعالى نفى النقائص ، والتنزيه من الآفات باستحقاق نعوت الجلال والكمال

ومن آداب من عرف معنى هذا الإسم أن يطهر لله تعالى نفسه عن متابعة الشهوات ، وماله عن الشبهات ، ووقته عن دنس المخالفات ، وقلبه عن كدورات العلاقات ، وروحهُ عن المضاجعات والمساكنات ، وسرّه عن الملاحظات والالتفاتات ؛ فلا يتذلل لمخلوق بالنفس التى بها عَبَدَه ، ولايعظم مخلوقاً بالقلب الذى به شهده ، ولا يبالى بما فقده بعدما وجده ، ولايرجع قبل الوصول اليه بما قصده .

« فصل » فى معنى اسمه « السلام »

قيل معناه ذو السلام ، والسلام بمعنى السلامة كاللذاذ بمعنى اللذاذة ، والرضاع بمعنى الرضاعة معناه يقوده(١) الى تنزيهه عن الآفات ، وتقديسه عن صفات المخلوقات فيكون بمعنى القدوس ، وقيل معنى السلام أنه سلم المؤمنون من عذابه كما أن معنى المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقيل معناه أنه ذو السلام على أوليائه فإنه عزّ وجلّ قال : « الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » ، فعلى القول الأول هو من صفات فعله ، حكى أن بعضهم رأى رجلاً يغتاب انسانا فقال له هل غزوت السنة الروم ؟ قال لا ، قال فهل غزوت الترك أو الهند ؟ قال لا

قال فكيف سَلِمَ منك أعداؤك الكفار ولم يسلم منك أخوك المسلم؟

---

(١) فى م (يعوده)

سئل بعضهم عن الورع فقال ؛ هو أن تطالب نفسك بما يطالب به الرجل الشحيح شريكه من المناقشة على النقير والقطمير .

ومن آداب من عرف هذا الإسم أن يعود الى مولاه بقلب سليم ، والقلب السليم هو الخالص من الغل والغش والحقد والحسد ، فلا يضمر لأحد من المسلمين إلا كل صفاء وخلوص ، وصدق ونصح ، فيحسن الظن بكافتهم ، ويسيء الظن بنفسه ؛ فيلاحظ أفعاله بعين الازدراء ، وأقواله بعين الافتراء ، ويعتقد أنه شر الخَلْق فيرى الكبير خيراً منه لأنه عرف الله تعالى وأطاعه قبله ، ويرى الصغير خيراً منه لأنه أقل منه معصية .وقال المشايخ : اذا ظهر لك من أخيك عيب فاطلب له سبعين باباً من العذر فإن اتضح لك فيها ، وإلا فعد على نفسك باللوم وقل بئس الرجل أنت حيث لم تقبل سبعين عذراً من أخيك

ومن أمارات من يكون سليم القلب للمسلمين ألا ينطوى قلبه على سوء لهم ، و(...)(١) يدعو اليهم ، وأن يساء اليه فيحسن اليهم ، وأن يُظْلَمَ فينصفهم من نفسه ولا ينتصف منهم

وروى فى الخبر أنه صلى عليه وسلم قال أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ؟

قالوا يا رسول الله ومن أبو ضمضم ؟

قال رجل كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضي على عبادك

« فصل » فى معنى اسمه « المؤمن »

معناه المصدّق ومعناه فى وصفه عز وجل تصديقه لنفسه وهو علمه تعالى بأن صادق ، أو تصديقه لعباده وهو علمه بأنهم صادقون ، أو تصديقه لوعده ؛ فيكون من صفات فعله على هذا الوجه

(١) غير مقروءة فى النسختين وإن كانت فى س أكثر وضوحاً وتميل إلى أن تكون (وعليه إن تخفى) — وربما قبلها السياق .

ويكون المؤمن من الأمان بمعنى الإجارة لا بمعنى التصديق وهو اعطاء الأمان لمن استجار به واستعاذ فيكون من صفات فعله ، فالعبد يؤمن بالله ، والله تعالى يؤمّنُه

واعلم أن المشابهة فى الأسماء لا تقتضى المشابهة فى الذوات ، قيل ينادى غداً فى القيامة منادٍ أن كل من سُمى بنبيٍّ من الأنبياء فليدخل الجنة ، فيبقى أقوام لم توافق أسماؤهم الأنبياء فيقول الله تعالى أنا المؤمن وأنا سميتكم المؤمن فيدخلهم الجنَّة

حكى عن أبى يزيد(١) قال همت أن أدعو الله تعالى أن يكفيى شهوات نفسى ، ثم قلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل ذلك فتركت هذا الدعاء فكفانى الله تعالى شهوات نفسى ببركة اتباع السُنة ، فصرت لا أميّز بين امرأة تستقبلنى وبين جدار.

حكى عن أبى بكر الكتّانى(٢) قال منذ كذا سنة ما خطر ببالى ذكر الطعام حتى قدم إلىّ وقال بعضهم كنت أخدم الكتّانى فى المدينة ، وكان يصوم فكنت أقدم له كل ليلة ما يفطر عليه وأمضى ، فظهر عليه أثر الضعف والنحول ، فراقبته ليلة فجاء إنسان وسأله فأعطاه ما قدمته إليه لإفطاره ، فتَبعْت الرجل وسألته عن قصته معه فقال له عدة ليالٍ يعطيى كل ليلة هكذا ، فحملته إلى الشيخ طعاماً آخر وقلت له هلاّ قلت لى

---

(١) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان وسروشان كان مجوسياً وأسلم وأبو يزيد من أهل بسطام ، وهو من كبار مشايخ الطبقة الأولى ، له أقوال فى الأحوال على جانب من الخطورة إذ تكسوها مسحة الشطح غالباً ، وله معراج روحى يعد من الشواهد النادرة على معارج الأولياء ، ومن أقواله هذا فرحى بك وأنا أخافك ، فكيف فرحى بك إذا أمنتك ؟ — يارب أفهمى عنك فإنى لا أفهم عنك إلا بك — وسئل بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال ببطن جائع وبدن عار ، توفى سنة ٢٦١ أو سنة ٢٣٤ م (انظر كتاب « المعراج » نشر الدكتور على عبد القادر فهو مذيل بمعراج أبى يزيد)

(٢) الكتانى بغدادى الأصل صحب الجنيد والخراز والنورى وجاوره بمكة إلى أن مات ٣٢٢ ﻫ . نظر مرة إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس فقال هذا رجل أضاع حق الله فى صغره فضيعه الله فى كبره (رسالة القشيرى)

إنك آثرت به حتى أحمل إليك طعاماً آخر فقال : كنت أنسى كل ليلة أنى لم آكل شيئاً

« فصل » فى معنى اسمه « المهيمن »

قيل هو الرقيب الحافظ ، وقيل الأمين ، وقيل الشهيد ، وقيل المؤمن أصله مؤيمن قلبت الهمزة هاء كما فى أرقت الماء وهرقته(١) فيكون بمعنى المؤمن على هذا

ومن آداب من عرف معنى هذا الإسم أن يكون مستحيياً من اطلاعه عليه ورؤيته له ، وهو المراقبة عند أهل التحقيق ، ومعناه علم القلب باطلاع الرب حكى أن ابراهيم بن أدهم(٢) كان يصلى ليلة ، وحين جلس مدّ رجليه فهتف به هاتف أهكذا تجالس الملوك ؟

وكان الحريرى(٣) لا يمد رجليه فى الخلوة ويقول حفظ الأدب مع الله تعالى أحق

« فصل » فى معنى اسمه « العزيز »

قيل هو الغالب الذى لا يُغلَب ، والظافر الذى لا يُقْهر ، من عز يعُزُّ بضم العين إذا غلب ، ومنه قوله تعالى « وعزّنى فى الخطاب » .

وقيل هو الذى لا مثيل له من عزّ يَعزُّ بكسر العين لمن ذا قل وجود مثله فكيف إذا عدم ، ومنه عزّ الطعام فى البلد .

وقيل هو القادر القوى من عزّ يعَز بفتح العين أى لا يُوصَل إليه ومنه

---

(١) فى م (وصرفته) وهى خطأ فى النسخ

(٢) ابن أدهم من بلخ كان من أبناء الملوك ثم طلق الإمارة وزهد ، وكان شديد الورع كثير السياحة ، من أقواله أطب مطعمك ولا حرج عليك ألا تقوم الليل ولا تقوم النهار ، وكثيراً ما كان يدعو اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك ، ويؤثر عنه أنه لقى الخضر عليه السلام فعلمه اسم الله الأعظم مات بالشام سنة ١٦١ هـ .

(٣) الجريرى من كبار أصحاب الجنيد مات سنة ٣١١ هـ من أقواله من استولت عليه النفس صار أسيراً فى حكم الشهوات ، محصوراً فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ بكلام الحق ولا يستحليه وإن كثر ترداده على لسانه

قولهم حصن عزيز إذا تعذّر الوصول إليه مع جوازه ، فكيف إذا استحال الوصول إليه إذ لا حدّ له .

وقيل هو « المعز » فعيل بمعنى مفعل كأليم ووجيع ، فعلى هذا القول يكون من صفات الذات ، وإنما يَعْرِفُ الله تعالى عزيزاً من أعزّ أمره بالسمع والطاعة ، فأمّا من استهان بأمره فمن المحال أنه تحقق عزّه ، ومن عرف عزّه يُمْنَع فَيَشْكُر ، ويُبْتَلى فيصبر ، ويستلذ لحكمه الهوان ، ويستحلي(١) الحرمان لأن القلوب مجبولة على تحمل المشاق من الأكابر والأعزّة ، والانقياد لأحكامها بالجوارح والقلوب .

قال رجل لبعض العارفين كيف الطريق إليه ؟

فقال لو عرفته عرفت الطريق إليه .

فقال كيف من لا أعرفه ؟ فقال وكيف من لا تعرفه ؟

وقيل لبعضهم ماعلامة أنك تعرفه ؟

فقال ما أهيمّ بمخالفته الا نادى منادٍ من قلبي استحِ مني .

ومن آداب من عرف أنه العزيز أنه لا يعتقد لمخلوق اجلالا ، ولهذا قال النبي عليه السلام « من تواضع لغنيٍ لأجل غناه ذهب ثلثا دينه » قال أبو علي الدقاق(٢) انما قال ثلثا دينه لأن تواضع المرء يكون بثلاثة أشياء ؛ لسانه وبدنه وقلبه ، فإذا تواضع له بلسانه وبدنه ولم يعتقد له العظمة بقلبه ذهب ثلثا دينه ، فإن اعتقدها بقلبه أيضاً ذهب كل دينه ، ولهذا قيل اذا عظم الرب في القلب صَغُرَ الخَلْق في العين

ومتى عرفت أنه المعز لم تطلب العز الا منه ، ولا يكون العز الا في طاعته ، فإن قيل كيف الجمع قوله تعالى « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » ، وقوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ؟ قلنا لا تنافي بينهما ؛ فإن العز الذي للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملْكاً وخَلْقاً ، وعزه سبحانه وتعالى له وصفاً ، فإذاً العِزّ كله لله .

---

(١) هكذا في س وبها يستقيم المعنى أما في م فقد وردت (يستحيل) .

(٢) الدقاق أستاذ القشيري ورائده وصهره وقد تحدثنا عن شيء من ذلك في تقديمنا لهذا الكتاب .

« فصل » فى معنى « الجبّار »

قيل هو مأخوذ من قولهم نخلة جبارة اذا فاقت(١) الأيدى ، فمعناه فى حقه أنه لا تناله يد جائرة ، ولا ينازعه معارض ، فيكون من صفات ذاته ؛ لأنه اخبار عن وجوده(٢) على وصف السؤدد والجلال

وقيل الجبار المتكبر من حيث المعنى ، والجبروت التكبر ، والتكبر فى وصف الله عزّ وجلّ محمود ، وفى وصف الخَلْق مذموم وعلى هذا المعنى يكون من صفات ذاته أيضاً

وقيل الجبار بمعنى المجبر ، وهو المكره يقال جبرته على الأمر وأجبرته بمعنى واحد ، وان كان أجبرته فى معنى الإكراه أكثر وأشهر استعمالاً من جبرته ، فمعناه فى حقه أنه لا يوجد من خلقه الا ما يريده شاءوا أو أبوا فيكون من صفات الفعل ، وقيل الجبار بمعنى المصلح من قولهم جَبَرْتُ الكسر اذا أصلحته ، ومنه قول الشاعر

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فانجبر

وعلى هذا يكون من صفات الفعل أيضاً ، والإسم اذا احتمل معانى مما يصح فى وصفه سبحانه فمن دعاه بذلك الإسم فقد أثنى عليه بجميع تلك المعانى

فمن آداب من عرف أنه لا تناله الأيدى لعلو قدره أن يتحقق أنه لا سبيل اليه ، ولابد من أمره (٣) ، ولا نصيب للعبد منه الا لطفه واحسانه ؛ اليومَ عرفانه ، وغداً غفرانه

ومن آداب من عرف أنه مصلح الأمور أن يتوخى أموره اليه ، ويتوكل فى جميع أحواله عليه ، ان أصابه خير علم أنه مسديه ومتحفه ، وان أصابه ضُرٌ علم أنه يزيله ويكشفه فلا يخاف من اختلال أحواله ، وقلة ماله مع كثرة عياله ، وضعف احتياله ، ثقة بلطفه وأفضاله

(١) هكذا فى س وبها يستقيم المعنى أما فى م فقد وردت (فانت)
(٢) هكذا فى م وهى أقرب إلى المعنى من (جوده) التى وردت فى س .
(٣) فى م (ولا بد منه)

« فصل » فى معنى « المتكبر »

التكبر والكبرياء اخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وصفات الجمال ، والتكبر فى صفة الخلق مذموم لأنهم محلُّ النقص ، فمن تكبر منهم فقد تكلف أن يتصف بغير ما يليق به ، فمن عرف علوه سبحانه وكبرياءه لزم طريق التواضع ، وسلك التذلل ، ولهذا قيل هَتَكَ سرَّه مَنْ جاوز قَدْرَه ، وقد قيل الفقير فى خَلَقَته(١) أحسن منه فى جديد غيره

ولا وصف أزين للخدم من التواضع بحضرة السادة ، سئل يحيى بن معاذ رضى الله عنه عن المحبة فقال هى مالا يزيد بالبر أو ينقص بالجفا

« فصل » فى معنى « الخالق »

الصحيح أن الخالق هو المخترع للأعيان ، المبدع لها

وقيل الخلق هو التقدير ، وقيل هو التصوير ، ومنه قوله تعالى «وإذْ تخلق من الطين كهيئة الطير »

ومن آداب من عرف أنه الخالق ان ينعم النظر فى اتقان خَلْقه فتلوح(٢) بقلبه دلائل حكمته سبحانه فى صنعه ، فيعلم أنه خلقه من نطفة بشراً ؛ ركب أعضاءه ، ورتّب أجزاءه ، على أحسن تركيب وأفضل ترتيب فتبارك الله أحسن الخالقين

حكى عن بعضهم قال كنت مع الشبلى رحمه الله ففتح له بمنديل حسن ، فمرّ بكلب ميت فقال لى كفن هذا الكلب فى هذا المنديل ، فادفنه . فحملت الكلب فيه ، وطرحته فى موضع ، ثم غسلت المنديل ، وعدت اليه ، فقال لى أفعلت ما أمرتك به ؟

فقلت لا

فلم يقل لى شيئاً ، فقلت له ما سبب ذلك الذى أمرتنى به ؟

---

(١) الثوب الخلق القديم البالى

(٢) فى م (ليلوخ)

فقال لمّا مررت به استقذرته واستقبحته ، فنوديت فى سرى أليس نحن خلقناه ؟! فأمرتك بذلك كفّارة لما خطر لى

وفى خبر مسند أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رحم الله أخى نوحاً كان اسمه يشكر ، ولكنه لكثرة بكائه على خطيئة أوحى الله تعالى يا نوح كم تنوح ، فسمى نوحاً ، فقيل يارسول الله وما كانت خطيئته ؟ فقال انه مرّ بكلب فقال فى نفسه ما أقبحه ! فأوحى الله تعالى اليه اخلق أنت أحسن منه !

ومن آداب من عرف أنه سبحانه هو المتفرد بالخلق والإيجاد ألا يمجد كسب العبد ، وألا يطوى بساط الشرع (فى الابتلاء بالأمر والنهى)(١) ، ولايعتقد أن للعبد على الله حجة بسبب ذلك

« فصل » فى معنى « البارئ »

هو الخالق يقال برأ الله الخلْق أى خلقهم ، ومنه البريّة وهى الخَلْق الا أن العرب تركتْ همزتها وقيل ان البرية مشتق من البرى وهو التراب فأصلها غير الهمز ، وكل ماذكر فى الخالق يأتى مثله فى البادى

« فصل » فى معنى « المصوّر »

التصوير جعل الشيء على صورة ، فالله تعالى برأ (٢) العبد وصوّره ولم يكن شيئاً مذكوراً ، فالواجب عليه ألا يُعْجَب بحاله ، وألا يَدل بأفعاله ، وكيف يتبجح بصفاء حاله وقد أشكل عليه حكم حاله ؟ وكيف لا يتواضع من يعلم أنه فى الابتداء نطفة ، وفى الانتهاء جيفة ، وفى الحال صريع جوعه ، وأسير شبعه ، كنيف فى قميص !! إنْ أمْسك عن الكلام ساعةً تَغَيّرتْ رائحة فمه ، وان عرق فاح صنان إبطه وأصابعه ؛ فإذا شاهد نقص نفسه عرف جلال ربه ، وقال تعالى : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » ؛

وقال تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » .

---

(١) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

(٢) فى م (برى) والأصح أن تكون (برا) أى (برأ) والهمزة محذوفة للتخفيف .

وقيل فى قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » ، معناه أن يفكر الإنسان كيف زيّن الله تعالى العضو الذى لا يزال ظاهراً منه وحسّنه وهو الوجه ، وستر عليه المساوئ فى الحال (١) (فهو) (٢) حقيق بألا يفضحك على رءوس الأشهاد يوم التناد

وقال بعضهم فى قوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين » وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، نبههم على حسن الخلق بما دلّهم عليه من صفة الأرض ؟ فإنه يُلْقِى عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح من الزهر وأنواع النبات ، فهكذا المؤمن ينبغى أن يشرب الغيظ ولا يرشح ، ويحتمل الأذى ولاينتقم(٣) حكى أن بعضهم كان يسئ القول فى رجل وهو يسمع ويسكت ، فضاق صدره فقال له اياك أعنى فقال وعنك أحلم

قال الله تعالى « وصوّركم فأحسن صورَكم » ، ولم يقل لشىء من المخلوقات أحسن صورتَه الا للإنسان تخصيصاً له وتكريما وقال : « لقدخلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وهذا أيضاً مما لم يُقسَم به وغيره وقد ورد فى بعض الآثار أن اللهتعالى خلق لجبرائيل عليه السلام ستمائةجناح كلها مرصعة باليواقيت والدرر وجلاجل الذهب المحشوة بالمسك ، لكل جلجل صوت لا يشبه صوت الأخرى ، وأن اسرافيل عليه السلام اذا أخذ فى التسبيح عطل على كل الملائكة تسبيحهم لحسن صوته ، وطيّب نغمته ، وأن نور العرش لو بدا لصار نور الشمس بالإضافة اليه كنور السراج بالإضافة الى نور الشمس .. ثم انه تعالى لم يصف شيئاً من هذه المخلوقات بما وصف به الإنسان من الوصفين المذكورين

ثم دعْ هذا الذى هو عائد الى الخِلْقه وانظر الى قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه » هل وصف بذلك أحداً من المخلوقات غير بنى آدم ؟ واعلم أن حسن التصوير

---

(١) فى الحال يقصد بها القشيرى هنا — فى هذه الحياة الدنيا

(٢) ما بين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم الأسلوب

(٣) القشيرى هنا ينتفع بما يعلم من تعريفات المشايخ للتصوف والصوفى فينقلها إلى معرض مماثل انظر مثلا الرسالة ص ١٣١ حيث تجد تعريف الجنيد للصوفى (إنه كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح)

وإن كان في ظاهر الخَلْق فإن حقيقته في باب الخُلُق أتم وأكمل ، فإن الله تعالى حسن خلق الأكثرين وقلّ من لم يُحْسن خُلُقَه ، وانما يمتاز العوام عن البهائم بسوّية(١) الخَلْق ، ويمتاز الخواص عن العوام بسوية الخُلُق ، ولم يمن الله تعالى على رسوله بشيء من النعمة كما منّ عليه بحُسن خلُقه حيث قال

« وانك لعلى خلق عظيم »

ثم اعلم أن تباين الأخلاق كتباين الصور فكما لاتتشابه الصورتان الانادراً فكذلك الأخلاق ، حكى أن بعض الأمراء سأل ندماءه عن(٢) شر الأشياء فقال بعضهم المرأة السوء ، وقال بعضهم الخلق السوء ، وقال بعضهم الحار السوء ، فتواضعوا على التحاكم الى أول من يلقونه اذا خرجوا من البلد للسير ، فلما خرجوا استقبلهم من أهل السواد رجلٌ معه حمار عليه جرار خزف ، فتحاكموا اليه فقال شر الثلاثة الخُلُق السوء لأن المرأة السوء يمكن التخلص منها بالطلاق ، والحار السوء يمكن منه بالنقلة والمفارقة ، (أمّا) الخلق السوء (فهو) معك أينما كنت ، فاستحسن الأمير قوله

« فصل » في معنى « الغفار »

من أسمائه عز وجلّ الغافر والغفور والغفّار ، والغفور والغفار للمبالغة ، والغفّار أبلغ ، وأصل الغفر الستر والتغطية ومنه قيل لجنّة الرأس المغْفر لأنها تستر الرأس ، وغفر الثوب( ) (٣) ، فالمغفرة من الله تعالى ستر للذنوب ، وعفوه عنها بفضله ورحمته لابتوبة العباد وطاعتهم ، وفي بعض الأخبار عبدي لو أتَيْتَني بتراب الأرض ذنوباً أتيتك بتراب الأرض مغفرة ما لم تشرك بي شيئا

وفي خبرٍ مسند: أن رجلاً يُؤْمَر به الى النار فإذا بلغ ثلث الطريق التَفَتَ ،

(١) في م (بتسوية الخلق)

(٢) في م (على)

(٣) غير مقروءة في النسختين

ثم اذا بلغ نصف الطريق التفت ، ثم اذا بلغ ثلثى الطريق التفت ، فيقول الله تعالى ردوه ثم يسأله

لمَ التفتّ ثلاث مرات ؟

فيقول لمّا بلغت ثلث الطريق ذكرت قولك « وربك الغفور ذو الرحمة » فالتفتُّ رجاءَ المغفرة والرحمة ، فلما بلغت نصف الطريق ذكرت قولك

« ومن يغفر الذنوب الا الله » ، فَقَوِىَ رجائى فالتفتُّ ، فلما بلغت ثلثى الطريق ذكرت قولك « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » فازددتُ رجاءً طمعاً فى مغفرتك ورحمتك !

فيقول الله تعالى اذهب فقد غفرت لك .

وقوله تعالى « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » فيه اشارة الى قبول توبة المشايخ الذين استغرقوا عمرهم وشبابهم فى الزلات والخطيئات ، ثم تابوا قبل الممات فى آخر عمرهم لأن كلمة ثمّ للتراخى ، وفيه لطيفة (١) أخرى وهى أنك عصيْتَه فعلاً ثم أطعته قولاً فرضى بذلك ، ولطيفة أخرى وهى أنك طلبت المغفرة فوجدت ، الله جلّ جلاله ؛ قال عزّ من قائل « ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » ، وليس العَجَب من السيّار اذ (٢) طلبوا ماء فوجدوا يوسف ، انما العجب من عاصٍ طلب المغفرة فوجد الله تعالى

وقيل إن رجلاً كان يقول إلهى أبطأت ! الهى أبطأت ! فهتف به هاتف لم تبطىء إنما أبطأ من مات ولم يَتُب

وجاء فى بعض الأخبار أن رجلاً فى الزمن الأول قتل تسعة وتسعين رجلاً بغير حق ، وجاء إلى بعض العلماء فقال ماتقول فيمن قتل تسعة وتسعين رجلاً بغير حق ؟

---

(١) يقصد بها المعنى الخفى المستنبط من ظاهر النص ، وللقشيرى تفسير كامل فى هذا الاتجاه اسمه « لطائف الإشارات »

(٢) هكذا فى س ووجدناها أكثر ملاءمة من (إذا) فى م

فقال العالم إنه فى النار

فغضب وقتل العالم ، ثم إنه بعد مدة ندم فجاء إلى عالم آخر ، وقال له ما تقول فيمن قتل مائة رجل بغير حق ثم تاب ، فهل يقبل الله تعالى توبته ؟ فقال نعم فقال أنا ذلك الرجل فما تأمرنى به ؟

فقال العالم بسبيلك أن تمضى إلى البلد الفلانية فإن الله تعالى يقبل توبتك هناك ومضى الرجل فمات فى الطريق ، فتخاصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فى قبض روحه ، فبعث الله مَلَكاً وقال إمسح الأرض التى قطعها إلى الموضع الذى بلغه ، والتى بَقِيَتْ ، وانظر إلى البلدين أيهما أقرب ، فنظر المَلَك فوجده إلى أرض التوبة أقرب بِشِبْر ، فأمر الله عزّ وجلّ به إلى الجنـــة (١)

« فصل » فى معنى « القهار »

من أسمائه سبحانه وتعالى القاهر والقهار وكلاهما فى القرآن والقهّار من صفات الذات وهو مبالغةٌ من القاهر ، وقيل هو من صفات الفعل معناه القاهر الذى يحصل مراده من خلقه شاءوا أو أبَوْا ، رضوا أم كرهوا واعلم أن الله سبحانه وتعالى قهر نفوس العابدين بخوف عقوبته ، وقلوب العارفين بسطوة قربته ، وأرواح المحبين بكشف حقيقته ، فالعابد بلا نَفْس لاستيلاء سلطان أفعاله عليه ، والعارف بلا قلب لاستيلاء سلطان اقباله عليه ، والمحب بلا روح لاستيلاء كشف جماله وجلاله عليه .

واعلم أنه سبحانه وتعالى قهر جميع عباده بالموت فلم ينج منه مَلَكٌ مقرّب ، ولا نبى مرسل ، طاحت عنده صولة المخلوقين ، وقُوى الخلائق أجمعين ، ويقال ان الله تعالى يذيق مَلَكَ الموت طعمَ الموت فيقول عند نزع روحه وَعِزّتِك لو علمتُ أن طعم الموت يكون مثل هذا لما قبضتُ روح أحد ، ولهذا المعنى من القهر يقول اذا قبض أرواح الخلائق أجمعين « لِمَنْ الملك اليوم لله الواحد القهّار »

---

(١) ليس بمستبعد أن تكون مثل هذه القصص من وضع القشيرى ، أراد بها صياغة نوع من الرمز يحقق هدفاً تعليمياً (انظر كتابنا النزعة الأدبية عند الإمام القشيرى)

« فصل » فى معنى « الوهاب »

من أسمائه عزّ وجل الواهب والوهّاب ، والواهب المعطى والوهّاب مبالغة منه ، وهى من صفات الفعل ، فالله تعالى كثير اللطف والإقبال ، عظيم المن والنوال ، يعطى قبل السؤال ، ويسبغ خصائص الجود والأفضال وقيل ان موسى عليه السلام قال يارب إنى أرى فى التوراة أمة قناديلهم فى صدورهم مَنْ هُمْ فقال هم أمة محمد ولم يزل موسى عليه السلام يعد صفاتهم الجميلة المذكورة فى التوراة ، والله تعالى يقول هم أمة محمد ، حتى اشتاق موسى عليه السلام الى لقائهم ، فقال له انك لا تراهم ولكن إن شئتَ أسمعتُك أصواتهم ، ثم نادى الله تعالى أمة محمد وهم فى أصلاب آبائهم ، فقالوا لبيك ربنا فقال يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى

حكى أن الشبلى رحمه الله سأل بعض أصحاب أبى على الثقفى فقال أى اسم من أسمائه سبحانه وتعالى يجرى على لسان أبى على أكثر ؟

فقال اسم الوهّاب

فقال الشبلى الملك كثر ماله

وحكى عن بعضهم أنه قال رأيت شيخاً أعرابياً عرياناً فى الطواف وهو يقول

أما تستحى يا خالق الخلق كلهم ... أناجيك عريانا وأنت كريم
وترزق أبناء الخنازير كلهم ... وتتركنى شيخاً أبوه تميم

فقلت له ألا تعلم أن الله تعالى لايُخاطَب بمثل هذا ؟

فقال اليك عنى ، فإنى أعلم به منك ، ومضى ، ثم جاء بعد ساعة وعليه جُبّة خزّ ، وهو يتبختر فيها ، فلما رآنى قال

ألم أقل لك أنا أعلم به منك ؟ عاتبتُه فأعطانى جُبَّةَ خز

ومن آداب من عرف أنه الوهّاب ألا يرفع حوائجه إلا اليه ، ولا يتوكل فى جميع أموره إلا عليه .

« فصل » فى معنى « الرزاق »

مبالغة من الرازق وهومعطى الرزق ، والرزق كل مايمكن أن ينتفع به فى ذاته ، وقيل ماكان معداً للانتفاع به مهيأ له

قيل لبعضهم من أين تأكل يا فلان ؟

فقال مُذْ عرفت خالقى ما شَككت فى رازقى

وقال رجلٌ لحاتم الأصم من أين تأكل ؟

فقال يكفى علمك الخبز من السماء

وقيل لبعضهم من أين تأكل ؟

فقال من خزانة مَلِكٍ لا يدخلها اللصوص ، ولا يأكلها السوس واعلم أن الله سبحانه وتعالى خص الأغنياء بوجود الأرزاق ، وخص الفقراء بشهود الرزاق ، فمن سعد بشهود الرزاق لم يضره ما فاته من وجود الأرزاق ، ومن عرف أنه الرزاق أرجع اليه جليلَ الرزق ودقيقه لأنه يعلم أنه لاشريك له فى رزقه كما لاشريك له فى خلقه وحكى أن موسى عليه السلام قال يوماً فى مناجاته الهى انى لتعرض لى الحاجة الصغيرة أحياناً فأسألها منك أم أطلبها من غيرِك ؟

فقال له لا تسأل غيرى واسألنى حتى مِلْح عجينك ، وعَلَف شاتِك. فلمّا قال له ذلك طلب منه الكثير والقليل ، فقال ربِّ أرنى أنظر اليك » ، وقال مرة أخرى « ربِّ انى لما أنزلت الىّ من خيرٍ فقير »

حكى أن الشبلى رحمه الله كتب الى بعض الأغنياء أن ابعث لنا من دنياك ، فقال اسأل الدنيا من مولاك ، فقال الشبلى الدنيا حقيرة وأنت حقير ، وانما أطلب الحقير من الحقير ، ولا أطلب من مولاى غير مولاى

واعلم أنه يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر ، ورزقها المعارف والكشوفات ، يوسّعها على قوم ، ويضيّقهما على قومٍ آخرين كما يشاء ويختار ، من غير علة كما فى أرزاق الأبدان

« فصل » فى معنى « الفتاح »

الفاتح والفتّاح من أسمائه ، وكلاهما فى القرآن والفتّاح مبالغة منه ، والفتاح هو القاضى والحاكم فى لغة العرب لأنه يفتح بقضائه ما انغلق من الخصومة ، والله تعالى فتاح لأنه يفتح على عباده ما انغلق عليهم من أبواب الرزق وغيره مما قصرت حيلهم عن فتحه ، ومنه قوله تعالى « فتحنا عليهم كل شىء » ، فمن علم أنه الفتاح للأبواب وللأسباب لم يعلق فكره بغيره ولم يشتغل قلبه بسواه ، فيعيش معه بحسن الانتظار كلما ازداد بلاء ازداد بربه ثقةً ورجاء كيعقوب عليه السلام قال لبنيه بعدما طال الأمر(١) ، وتمادت الغيبة ، ورجعوا اليه خائبين غير مرة « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »

وحكى عن بعض الفقراء أنه كان يأتى كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف كثيراً ثم يخرج من جيبه رقعة ينظر فيها ، فلما كان فى بعض الأيام فعل ذلك ثم تباعد ومات فجاء بعض من كان يرمقه ، فأخرج الورقة وقرأ ما فيها فإذا فيها « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ، وكان الرجل قد أصابته فاقة فصبر ، ولم يُظْهِرْ حاله لمخلوق حتى مات

ومن آداب من علم أنه الفتّاح أنْ يكون حَسَنَ الانتظار لوجود لطفه ، دائم الترقب لحصول فضله ، مستديم التطلع لنبيل كرمه ، تاركاً للاستعجال ، ساكناً تحت جريان الحكم علماً منه أنه لايقدم ماحَكَمَ بتأخيره ، ولايؤخر ما حكم بتقديمه وحكى أن رجلاً كان يؤذن لعلى رضى الله عنه فى مسجده ، وكانت تخرج من دار علىّ رضى الله عنه جارية تستسقى الماء بكرةً ، وكان المؤذن يقول لها كل يوم إنى أحبك فشكت يوماً إلى على رضى الله عنه قائلة

إنّ هذا المؤذن يقول لى كل يوم إنى أحبك ، فقال على قولى له وأنا أيضاً أحبك فما بعد هذا ؟

---

(١) هكذا فى م وهى فى س (الأمد) والمعنى يتقبلهما ؛ إما أمر غيبة يوسف أو أمدها .

فقالت الجارية له ذلك ، فقال بعد هذا نصبر حتى يحكم لله بيننا فذكرتْ ذلك الى على ، فدعاه ، وسأله عن القصة فأخبره بالصدق ، فقال له على احملها الى بيتك جارية لك فقد حكم الله بينكما

« فصل » فى معنى « العليم » :

العالم والعليم والعلاّم من أسمائه سبحانه وتعالى ، والتوقيف فى أسمائه معتبر ، فلا يسمى الا مما ورد به الكتاب أو السنة وانعقد عليه اجماع الأمة ، ولهذا لا يسمى عارفاً ، ولا فطناً ، ولا عاقلاً

ومن آداب من تحقّق أنه عالم أن يكون مكتفياً بعلمه عند جريان حكمه ، ساكناً عن تدبير نفسه بتقديره ، ولهذا لما تعرّض جبرائيل للخليل عليه (١) السلام وهو فى الهواء بعد خروجه من كفة المنجنيق ، وقال له

هل لك من حاجة ؟. فقال أمّا اليك فلا

فقال له فاسأل الله تعالى

فقال حسبي من سؤالى علمه بحالى

وحكى أن رجلاً قال لبعض العارفين أيطلب العبد رزقه ؟

فقال إنْ علم أين هو فليطلبه

فقال أيسأل الله تعالى رزقه؟

فقال إنْ علمَ أنه نسيه فليذكرْه

ومن آداب من علم أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء حتى بخطوات(٢) الضمائر ، ووساوس الخاطر أن يستحي منه ، ويكف عن معاصيه ، ولا يغتر بجميل ستره ، ويخشى بغتات (٣) قهره ، ومفاجآت مكره ، قال تعالى

---

(١) فى م (عليهما)

(٢) فى م (بخطوات) والأصح (بخطرات) كما فى س خصوصاً إذا رأينا القشيرى فى رسالته يعرف الخطرات بأنها خطاب يرد على الضمائر ، فالصلة بينهما متوثقة حسب الاصطلاح (الرسالة ص ٤٦) .

(٣) فى م (بعتاب) وهى لا توافق المعنى

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » وفى بعض الكتب السماوية إن لم تعلموا أنى أراكم فالخلل فى إيمانكم وإن علمتم أنى أراكم فلا تجعلونى أهون الناظرين إليكم)

ومن آدابه أيضاً ألا يتعرّض لمخلوق فيما يحتاج إليه من مطالبته اكتفاء بعلمه ؛ فإن من(١) سَكَن قلبُه إلى مخلوق عوقب فى الحال ، إن كان له عند الله قَدْر وحكى عن بعضهم أنه قال كنت جائعاً فقلت لبعض معارفى إنى جائع فلم يطعمى شيئاً ، فمضيت فوجدت درهما ملقى فى الطريق فرفعته فإذا عليه مكتوب « أما كان الله جل جلاله عالماً بجوعك حتى طلبت من غيره ؟! »

وحكى عن أبى سعيد الخرّاز أنه قال : خرجت من البادية وكنت جائعاً ، فدخلت الكوفة ، وكان لى بها صديق يقال له الحرارى ، وكان يضيفنى إذا دخلت الكوفة ، فأتيت حانوته ، فوجدته غائباً ، فدخلت مسجداً بقرب حانوته أنتظر رجوعه ، وقلت بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وسلام علينا وعلى عباد الله المتوكلين ، وقعدت أنتظره ، فدخل داخل وقال

الحمد لله رب العالمين ، سبحان من أخلى الأرض من المتوكلين ، وسلام علينا وعلى جميع الكذّابين يا أبا سعيد مدعياً التوكل التوكل فى الصحارى والبرارى وليس فى الجلوس على البوارى وانتظار الحرارى

قال فالتفت فلم أرَ أحداً

وهكذا سُنّةُ الله جل جلاله مع خواص عباده ؛ لايساهلهم فى خطرة ، ولا يتجاوز عنهم فى لحظة ، بل يطالبهم بالكبير والصغير ، ويحاسبهم(٢) فى النقير والقطمير ، وأما الذين رتبتهم خسيسة ، وقيمتهم قليلة ، فيذرهم بإمهاله يغترون ، وفى غفلاتهم ينهمكون ، حتى يأخذهم بغتةً وهم لا يشعرون نعوذ بالله من مكر الله

(١) فى م (فإن ما سكن)
(٢) فى م (ويضايقهم)

« فصل » فى معنى « القابض الباسط »

من أسماء الله تعالى نطق بهما الكتاب والسنة وهما من صفات فعله ، معناه قابض الأرواح عن الأشباح عند الموت ، وباسط الأرواح فى الأشباح عند الحياة

وقيل معناه قابض الصدقات من الأغنياء أى قابلها ، وباسط الأرزاق للفقراء أى معطيها وواهبها

وقيل معناه قابض القلوب أى مضيّقـُها وموحشُها بالجهل والغفلة ، وباسط القلوب أى موسّعـُها بالعلم والمعرفة

واعلم أن القبض والبسط فى اصطلاح أهل المعرفة عبارة عن غلبة الخوف والرجاء على القلب ، فمن غلب على قلبه الخوف كان من أهل القبض ، ومن غلب على قلبه الرجاء كان من أهل البسط ، فإذا كاشف الحق (١) عبداً بنعت جلاله قبَضَه ، وإذا كاشفه بنعت جماله بسَطه

واعلم أن الله تعالى يرد العبد إلى أحوال بشريته فيقبضه حتى لا يطيق حمل ذرة ، ويأخذه مرة عن صفاته فيحمل كل مايرد عليه بقوة وطاقة ، وحكى عن بعضهم قال كنت مع الخوّاص (٢) فى سفر فنزلنا تحت شجرة فجاء أسد وربض بقربنا ، ففزعت فزعاً شديداً ، وصعدت إلى الشجرة ، وقعدت على غصن إلى الصباح من خوف الأسد ، ونام الخوّاص تحت الشجرة ولم يحتفل بالأسد ، فلمّا كانت الليلة الثانية نزلنا فى مسجد فنام الخواص ، فوقعت على وجهه بقّة فضجّ فقلت له هذا عجب ! ! البارحة ماجزعت من الأسد والليلة جزعت من بقة ؟ !

فقال البارحة كنت مأخوذاً عنى ، والليلة أنا مردود إلىّ فلهذا جزعت

---

(١) هكذا فى س ، أما فى م فهى (الحياة) وبها لا يستقيم المعنى

(٢) الخواص هو ابرهيم بن احمد بن اسماعيل ، أحد من سلك طريق التوكل ، وكان أوحد المشايخ فى وقته ، ومن أقران الجنيد والنورى ، وله فى السياحات والرياضات مقامات يطول شرحها توفى سنة ٢٩١ هـ من أقواله من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة له — ليكن لك قلب ساكن ، وكف فارغة ، وتذهب النفس حيث شاءت — على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين (طبقات السلمى)

وحكى عن الشافعى رضى الله عنه قال من عرف الله تعالى حمل السموات والأرضين على شعرة من جفن عينه ، ومن لم يعرف الله جلّ جلاله لو تعلّق به جناح بعوضة لضجّ فحُمل هذا منه على حالتى القبض والبسط

وقال بعضهم إن الله تعالى إذا قبض قبض حتى لاطاقة ، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة

وكان الشيخ أبو على الدقاق يقول القبض حق الله من العبد ، والبسط حظ العبد من الله تعالى ، ولأن يكون العبد لحق الله منه أتم من أن يكون قائماً بحظه من الله تعالى ، وينبغى للعبد أن يتجنّب الضجر فى وقت قبضه ، ويتجنّب ترك الأدب فى وقت بسطه ، فإن كل واحد من الأمرين خطر عظيم

«فصل» فى معنى «الخافض الرافع»

اسمان من أسمائه سبحانه وتعالى ورد بهما الخبر ، وهما من صفات فعله ، يرفع من يشاء بإنعامه ، ويخفض من يشاء بانتقامه قيل مَنْ رَضى بدون قَدْرِه رفعه الله فوق غايته

حكى أن رجلاً رأى إنسانا واقفاً فى الهواء فقال له كيف بلغت هذه المنزلة ؟

فقال جعلت هوى نفسى تحت قدمى ، فسَخّر لى الهواء

واعلم أن الرفع والخفض فى الأمور الدنياوية مجاز وفى الأمور الدينية — كالأخلاق والصفات الباطنة — حقيقة (١) فمن زكّى نفسه ، وطهّر خلاله ، فهو المرفوع حقيقةً ، ومن دس نفسه فى دَنَس خلاله ، وأسَرّتْه شهواته وهواه فهو المخذول المخفوض(٢) حقيقةً

---

(١) الرفع والخفض والمجاز والحقيقة — هذه الألفاظ تذكرنا بمصطلحات النحو والبلاغة ، وينبغى أن نتذكر أن القشيرى حاول فى أحد كتبه «نحو القلوب» أن يستخدم القواعد المألوفة فى النحو على التصوف أو أن يستخدم التصوف فى علم النحو وهى محاولة شيقة (انظر كتابنا الإمام القشيرى وتصوفه)

(٢) فى ٥. (المحفوظ)

حُكِيَ أن امرأة (كانت) تكنس المساجد ، وكانت تسمى مسكينة ، فرؤيت فى المنام فقيل لها ما حالك يا مسكينة ؟

فقالت هيهات ذهبت المسكينة !

واعلم أن من تذلّل لله فى الدنيا رفعه الله فى الآخرة ، قال الله تعالى « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً »

جاء فى التفسير أن معنى مُلْكاً كبيراً أن الله تعالى يرسل مَلَكاً إلى وليّه بكتاب ، ويقول له إستأذنْ على عبدى فإنْ أذِنْ لكَ فادخل وإلا فارجع فَيَسْتأذِن عليه من سبعين حاجباً ، فيأذَن له ، فيدخل عليه ويعطيه كتاب الله تعالى وعلى عنوانه مكتوب من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى يموت ، فيفتحه فيجد فيه مكتوباً يا عبدى إشتقْت إليك فزرنى ، فيقول هل جئت بالبراق ؟

فيقول المَلَكُ نعم فيركبه ولى الله ، فيغلب الشوق على قلبه ، فيحمله شوقه ويطير به حتّى يوصله إلى بساط اللقاء ، ويبقى البراق فى الطريق

وأما الذى يخفض(١) به فهو فى الآخرة أذل من التراب ، تطؤه الأقدام ، قال الله تعالى « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا »

« فصل » فى معنى « المعز المذل »

من صفات فعله سبحانه وتعالى وذلك يكون فى الدنيا والآخرة ، كما مرّ فى الخافض والرافع ، فعزّ الدنيا بالمال والحال ؛ فالمال لتزيين الظاهر ، والحال لتزيين الباطن ، فيعز الزاهد بعزوف (٢) نفسه عن الدنيا ، ويعز العابد بسلامة نفسه عن اتباع الهوى ، وعن الرغائب والمنى(٣) ، ويعز المريد بزهده فى صحبة الورى ، وانقطاعه إلى باب المولى ، ويعز العارف بتأهيله

(١) فى م (يحفظ)

(٢) مشتبهة فى م ، وربما كان من الخير أن تعدل الدنيا إلى الدنى حتى تتفق الفاصلة

(٣) وردت (المن) فى م وهى خطأ فى النسخ

لمقامات النجوى ويعز المحب بالكشف والبقاء والفنا(١) عن كل ما هو غير وسوى ، ويعز الموحد بشهود جلال من له البهاء والبقا (٢)

واعلم أن أصل إعزاز الحق لعباده يكون بالقناعة ، فإن كل الذل فى الطمع ، ألا ترى أن البازىَ أو(٣) العُقاب يطير فى فضاء عزه حتى ينتهى إلى محلٍ لا يرتقى إليه طَرْفٌ ، ولا تسموإليه همّة ، فيرى قطعة لحم على شبكة فينزله الطمع إليها ، فيعلق بالشبكة ، فيصيده صبى ثم يلعب به ، أو يسخر به عبد فلولا الأطماع الكاذبة لما استَبْعدَ الأحرار كُلَّ شىء لا خَطَرَ له ، ولهذا قيل

وخير رداء يرتديه ابن حرّةٍ سلامة عرْضٍ لم يدَنّس بمطمع

قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام حذّر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا محجوبة عنى ، وحكى عن بعض المشايخ أنه دخل على تلميذ له ، فقدّم إليه خبزاً قفاراً ، ولم يكن عنده إدام ، فتمنى بقلبه لوكان عنده إدام لقدّمه إلى الشيخ ، فقام الشيخ وقال له تعال معى .. وذهب به إلى باب السجن فرأى الناس ؛ واحد يُضْرَب ، وآخر يُصْلَب ، وآخر تُقطَع يده ، وآخر يعصر ، وقال له

هؤلاء الذين لم يصْبروا على خبز القفار

وحكى أن شيخاً حضر باب أمير فرأى الناس محجوبين عنه إلا خادماً له فإنه كان يدخل بلا حجاب ، فسأل عنه فقيل له إنه يدخل على الأمير وعلى حرمه أيضاً ، متى شاء بغير حجاب ، فقال له

ولِمَ ذلك ؟

فقال لأنه مفقود آلة الشهوة

فقال الشيخ سبحان من وعظنى بعد سبعين سنة ، يخصى (أن) من أراد الدخول على مولاه بغير حجاب فعليه بترك الشهوات

---

(١) وردت فى م (اللقاء والغنا) وهما خطأ فى النسخ

(٢) وردت فى م (واللقاء) وهى خطأ فى النسخ

(٣) آثرنا أو بدلا من (الواو) الموجودة فى م ، س لأن الفعل جاء مفرداً بعدها

قال المشايخ ما أعزّ الله عبداً بمثل ما يدله على ذل نفسه ، وما أذلّ عبداً بمثل ما يرده إلى توهم عزّه قيل فى قوله تعالى : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » تعز من تشاء بأن يكون لك بك معك بين يديك ، وتذل من تشاء بأن يكون فى أسر نفسه ، وغطاء شهواته ، وسجن أمانيه فيصبح محجوباً ، ويمسى محروماً نعوذ بالله من ذلك

« فصل » فى معنى « السميع البصير »

سمعه وبصره سبحانه وتعالى صفتان له زائدتان على علمه خلافاً للقدرية ، وهما إدراكان آخران له فلا يخرج مسموع عن سمعه ، ولا موجود عن بصره ، ولا يحجبهما شيء ، فيسمع السر والنجوى ، ويبصر ما تحت الثرى

فمن عرف أنه بهذه الصفة كان من أدبه دوام المراقبة ، ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة

حكى أن بعض الملوك كان له عبد يقبل عليه أكثر مما يقبل على أمثاله ، ولم يكن أحسن منهم صورة ، ولا أكثر منهم قيمة ، فكانوا يتعجبون من ذلك ، فركب الملك يوماً إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده ، ونظر إلى جبل بعيد عليه قطعة ثلجٍ نظرةً واحدةً ثم أطرق فركض ذلك العبد بفرسه قبل أن ينظر الملك إليه ، ولم يُعْلِمْ الجماعة بشيء ، وما لبث إلا ساعة حتى عاد ومعه شيء من الثلج

فقيل له بم عرفت أن الملك أراد الثلج ؟

فقال لأنه نظر إلى الجبل ، ونَظَرُ الملوك إلى شيء لا يكون عبثاً

فقال الملك أنا أقربه وأقدّمه عليكم ، فإنكم مشغولون بأنفسكم ، وهو مشغول بمراقبة أحوالى

ومن حفظ سمعه وبصره لله تعالى عما لا يحل سماعه ورؤيته أحبّه ، فكان له سمعاً وبصراً ، فبه يسمع ، وبه يبصر كما جاء فى الخبر المشهور .

وحكى عن سهل بن عبد الله أنه (قال)(١) منذ كذا سنة (و) أنا

---

(١) ناقصة فى

أخاطب الحق سبحانه وتعالى والناس يتوهمون أنى أخاطبهم

واعلم أن العبد إذا علم أن مولاه يسمع ما يقال ، ويرى به الأحوال ، فإنه يكتفى بسمعه وبصره عن انتقامه وانتصاره ؛ فإنَّ نصرة الحق له أتم لنفسه ، قال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه السلام » ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ، ثم انظر بماذا سلاّه ؟ وبأى شىء خفّف عليه حَمْل أثقال الأذى ؟ حيث قال « فسبّح بحمد ربك » ، يعنى إذا تأذيتَ بسماع السوء فيك منهم فاستروح بروْح ثنائك علينا والمذة التنزيه والذكر لنا فإن ذلك يريحك ويشغلك عنهم ، ثم إنه عليه السلام لما قبل هذه النصيحة ، وامتثل لأمر ربّه ، تولىّ نصرته والردّ عنه ، فلمّا قيل إنه مجنون أقسم على نفى ذلك بقوله « ن والقلم وما يسطرون » تخفيفا لتنزيهه لما اشتغل عنهم بتنزيه ربه ثم عاب الله تعالى القادح فيه بالجنون بعشر خصال ذميمة بقوله « ولا تطع كل حلاّف مهين » إلى قوله « أساطير الأولين » وكان رد الله تعالى عنه ، وذمُه لهم ، أتمّ من ردّه عن نفسه حيث كان من جملة القرآنِ باقياً على الألسنة إلى يوم القيامة

« فصل » فى معنى « الحكم العدل »

الحكم هو الحاكم المحكم ، وحكمه ( ) (١) عن الشىء على وصف فيكون ذلك من صفات ذاته ، ويكون حكمه أيضاً على عباده بشىء بمعنى خلقه ذلك الشىء على الوجه الذى يريد ، يقال حكم لفلان بالنعمة أى أنعم عليه ، وحكم على فلان بالمصيبة إذا خلق له البلاء ، فيكون على هذا من صفات الفعل .

والعَدْل من صفات ذاته بمعنى أن له أن يفعل فى ملكه مايريد ، وجميع الخلائق بعض ملكه فيفعل فيهم مايريد

فمن عرف أنه العدل لم يستقبح بقلبه موجوداً ، ولم يستثقل منه حكما بل يستقبل حكمه بالرضا ، ويصبر تحت البلاء بغير شكوى لعلمه أنه

(١) مشتبهة فى م

عدل ، قال أبو عثمان المغربي(١)قلوب العارفين فارغة لمفاجآت القدر .

واعلم أن الله تعالى حكم فى الأزل بما شاء ، فمن حكم له بالسعادة يسعد أبداً ، ومن حكم عليه بالشقاوة لا يسعد أبداً ، ولهذا قيل من أقصته السوابق لم تُدْنِه الوسائل ، ومن أقعده جده لم ينفعه كده

واعلم أن الناس على أربعة أقسام أصحاب السوابق وهم الذين تكون فكرتهم أبداً فيما سبق لهم من الله تعالى ليُعْلِمَهم أنّ الحكْم الأزليّ لا يتغير باكتساب العبيد ، وأصحاب العواقب وهم الذين يفكرون أبداً فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بخواتيمها ، والعاقبة مستورة ، ولهذا قيل لا يغرّنكم صفاء الأوقات ، فإن تحته غوامض الآفات ، وأصحاب الوقت وهم الذين لا يفكرون فى السوابق وفى العواقب بل يشتغلون بمراعاة الوقت ، وبما(٢) كلّفوا من أحكامه ولهذا قيل: العارف ابن وقته، وقيل: الصوفى من لا ماضى له ولامستقبل وقيل إن بعض الفقراء رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى النوم فقال له أوْصِنِى

فقال كن ابن وقتك

والقسم الرابع الذين الغالب عليهم ذكر الحق فهم مشغولون بشهود الحق عن مراعاة جميع الأوقات وقال الجنيد(٣) رحمه الله دخلت على السرى(٤) يوماً فقلت له كيف أصبحت ؟

فقال ليس عند الله صباح ولامساء

---

(١) أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي أوحد عصره صحب ابن الكاتب والزجاجى مات بنيسابور سنة ٣٧٣

(٢) فى م (وإذا ماكلفوا) وهى غير مقبولة

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد الطائفة وإمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وكان فقيها على مذهب ثور صحب السرى والمحاسبى والقصاب ومات سنة ٢٩٧ هـ ، وقد ذكر القشيرى فى رسالته جملة من أقوال الجنيد تدل على عظيم فضله وغزارة معرفته

(٤) السرى السقطى خال الجنيد واستاذه وتلميذ معروف الكرخى كان أوحد زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد مات سنة ٢٥١ (طبقات السلمى)

أشار بذلك إلى أنه غير مطلع على الأوقات بل مستغرق فى شهود (١) الموقّت وقيل فى معناه

لا كنت إن كنت أدرى كيف كنت ولا أكون إن كنت أدرى كيف لم أكن

يا من به صرت بين البث والحزن

وربما يزيد هذا الوصف ويغلب حتى يفنى العبد عن كل إحساس ، وعن فنائه أيضاً كما فى قوله تعالى « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود »

وحكى أن رجلاً دقّ الباب على أبى يزيد فقال له(٢) إيش تريد ؟

فقال أبا يزيد فقال ليس فى البيت أبو يزيد ! !

وحكى أن رجلاً قال للشبلى أين الشبلى ؟

فقال مات لا رَحِمَهُ الله !

وقيل إنّ ذا النون المصرى بعث رجلاً إلى بسطام يتعرّف أحوال أبى يزيد ويجيئه بها ، فذهب إليه فوجده فى المسجد فسلّم عليه فقال له

إيش تريد ؟

فقال أبا يزيد

فقال له أين أبو يزيد ؟ أنا أيضاً فى طلب أبى يزيد !

فقال فى نفسه هذا مجنون ، ضاع سفرى !

فلما رجع إلى ذى النون ووصف له ما رأى وسمع بكى ذو النون ، وقال أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين فى الله جل جلاله

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام « إنى ذاهب إلى ربى فيهدين » ، كان ذاهباً فى الله فلهذا ذهب إلى الله ، فذهابه فى الله أوجب ذهابه إلى الله . واعلم أن هذه الألفاظ توهم ظاهرها لمن لم يمارس علوم هذه الطائفة ، وأمّا من عرف حقائق الأصول ، وشمّ شيئاً من علومهم فإنه يقف على معانيها ويفهم مرموزهم فيها ، وحاشا الأولياء العارفين أن كلامهم يعترض فيه مُحَقِّق

---

(١) فى م (مستغرق بشهود)

(٢) فى م (فقيل له) وهى غير مقبولة

« فصل » فى معنى « اللطيف »

اللطيف فى اللغة له ثلاثة معانٍ : أحدهما أن يكون عالماً بدقائق الأمور وغوامضها ومشكلاتها ، والثانى الشيء الصغير الدقيق وهو ضد الكثيف ، ومنه قيل لطف به فهو لطيف إذا رفق به ، وأوصل إليه منافعه من حيث لا يعلم ولا يَقْدر على الوصول إلى ذلك بنفسه ، وهذه هو المعنى الثالث فاللطيف بالمعنى الثانى فى حقه مستحيل ، وبالمعنى الأول واجب وهو من صفات ذاته ، وبالمعنى الثالث وهو المحسن الموصّل للمنافع برفق — ثابت ، وهو من صفات فعله ، وقوله تعالى « الله لطيف بعباده » يحتمل المعنيين أن يكون عليماً بهم ، وبمواضع جوائجهم ، يرزق من يشاء ماشاء كما يشاء ، ولطيف بهم يحسن إليهم ، ويتفضل عليهم ويرفق بهم فإن حملت الآية على صفة الذات، كانت تخويفاً ؛ لأنها تدل على أنه العليم بخفايا الآفات ، ودقائق المخالفات ، فتكون بمعنى قوله تعالى «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.» فتوجب قبض العبد (حين) تذكره وصف الإطلاع (عليه) ، ولهذا قال بعض المشايخ إن لكم من الآفات فى الطاعات ما يقوم مقام ارتكاب المخالفات ، وإن المفلس حقاً من ظنّ أنه موسر ، ثم بان له إفلاسه عند تصفح ديوانه

قيل من لطفه سبحانه بعباده أنه أعطاهم من النعم فوق الكفاية ، وكلّفهم دون الطاقة ، قال تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ، ما يَفْضُل عن قدر الحاجة ، وقال فى صفة التكليف « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ولهذا سهّل على عبده الأمر حتى إنه فرض عليه خمس صلوات ، فى اليوم والليلة ، ولم يكلفه أن يؤديها جملة واحدة (بل رضى منه بأدائها)(١) منجمّة متفرقة ، وأعطاه من الرزق ما يكفيه لسنةٍ أو لسنين كثيرة وهو يشكو أو يتسخط.

ومن لطفه بعباده أنه يوصّل إليهم مايحتاجون إليه من غير تكلفٍ مشقةٍ تقتضيها تلك النعمة ، ومثاله من قوته رغيف ؛ لو فكّر فيه لعَلِمَ كم عينٍ

(١) مشتبهة فى م ومقروءة فى س

سهرت فيه من أول الأمر حتى تمّ وصلح للأكل ، من الحارث والباذر وساقى الزرع والحارس والحاصد والدارس والمذرى والطاحن والعاجن والخابز ، وتتشعب من ذلك الآلات التى تتوقف عليها هذه الأعمال من الأخشاب والحجارة والحديد والحبال والدواب بحيث يكاد لاينحصر ، وهكذا كل شيء ينعم به على عبده من مطعوم ومشروب وملبوس ، فيه مقومات(١) كثيرة لو احتاج العبد إلى مباشرتها بنفسه لعجز عن ذلك

ومن لطفه بهم أيضاً توفيقهم للعبادات والطاعات ، وحفظهم من الوقوع فى المعاصى والزلات ، وحفظ التوحيد فى قلوبهم ، وتثبيتهم على الإيمان ، وإبقاء المعرفة عليهم مع وجود الزلات — وهو أعجب من إخراج اللّبن من بين فَرْث ودمٍ ؛ ولكن سُنّةَ الله سبحانه حفظ كل لطيفة فى طىّ كل كثيفة ، وصيانة الودائع فى المواضع المجهولة ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر ، والصَدَفَ معدن الدر ، والذباب معدن الشهد ، والدود معدن الحرير ؟ وكذلك جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته وهو مضغة لحم

« فصل » فى معنى « الخبير »

بمعنى العليم ، وهو من صفات ذاته عزّ وجل ، ويجوز أن يكون بمعنى المخبر أى فعيل بمعنى مُفْعِل ، وكلا المعنيين صحيح فى حقه سبحانه ، فمن عرف أنه خبير بأحواله كان محترزاً فى أقواله وأفعاله ، واثقاً بجميع اختياره ، متحققاً أن ما قسم له لا يفوته ، ومالم يقسم له لا يدركه ، فيرى جميع الحوادث من الله سبحانه فتهون عليه الأمور ، بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحق وبعضها إلى الخَلْق فإنه يكون أبداً فى تعب

وإذا عرف العبد أنه مطلع على سرّه ، عليم بخفىّ ما فى صدره ، يكتفى من سؤاله برفع همته إليه ، واستحضار(٢) حاجته فى قلبه من غير أن ينطق بلسانه

(١) فى م (مقدمات) والمعنى يسيغ هذه وتلك
(٢) فى م (وإحضار)

حكى أن رجلاً جاء إلى أبي يزيد وقال إن الناس قد احتاجوا إلى المطر فادع الله تعالى يرزقهم ذلك

فقال أبو يزيد يا فلان أصلحْ الميزاب ، ولم يتكلم بغير ذلك ، ولم يفرغ المأمور من إصلاح الميزاب حتى جاء المطر

حكى أن رجلاً فكّر يوماً وقال عمرى كذا وكذا سنة ، يكون منها كذا وكذا شهراً ، يكون منها كذا وكذا يوماً ، فبلغ عمره من الأيام ألوفاً كثيرة ، فقال لولم أعصَ الله تعالى كلّ يوم إلا معصية واحدة لكان فى ديوان عملى كذا وكذا ألف معصية ، فكيف وإنى فى كل يوم عملت كثيراً من المعاصى ، ثم صاح وفارق الدنيا

« فصل » فى معنى « الحليم »

قيل الحلم تأخير العقوبة عن المستحق لها فيكون من صفات فعله يوصف به فى الآزال(١) ، وقال أهل الحق حلمه إرادته تأخير العقوبة فهو من صفات ذاته لم يزل حليما ولا يزال ، فيؤخر العقوبة عن بعض المستحقين ، ثم قد يعذّبهم ، وقد يتجاوز عنهم ، ويعجّل العقوبة لبعضهم ، فالأمر فى ذلك على ما سبق به الحكم فى الأزل ، وتعلّقت به الإرادة والعلم

حكى أن ابراهيم عليه السلام لمّا رأى ملكوت السموات والأرض رأى عاصياً فى معصيته فقال اللهم أهلكه ، فأهلكه الله تعالى ، ثم رأى آخر فدعا عليه فأهلكه الله ، ثم رأى آخر فدعا عليه فأهلكه الله ، ثم رأى رابعاً فدعا عليه فأوحى الله تعالى إليه قفْ يا ابراهيم فلو أهلكنا كل عاصٍ رأيته(٢) لم يبقَ من الخَلْق أحد ، ولكنّا بحلمنا لا نعذّبهم فإمّا أن يتوبوا ، وإما أن يُصِروا ، فلا يفوتنا شىء

ومن حلمه أنه لا يستفزه إصرار العاصين ،ولا يحمله على سرعة الانتقام انهماك المؤمنين ، فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم ،ويستر حتى يتوهم العمى(٣) أنه ليس يبصر .

(١) فى م (لا يزال)
(٢) فى م (رأيناه)
(٣) مشتبهة فى م

« فصل » فى معنى « العظيم »

معناه عند أهل التحقيق يرجع إلى استحقاقه لصفات العلو والمجد ورفعة القــدر .

والعظيم بمعنى كبير الأجــزاء وهذا محال فى حقه عزّ وجل

ومن صفات العلو استحقاقه وجوب القدم والوحدانية ، وانفراده بالقدرة على الإيجاد ، وشمول علمه لجميع المعلومات ، وشمول قدرته لجميع المقدورات ، وإدراك سمعه وبصره لجميع المسموعات والمرئيات ، واستغناؤه عن الأنصار والأعوان ، وتقدسه عن المكان والزمان ، وتنزه ذاته عن قبول الحدثان

حكى أن بعض المشايخ سئل عن عظمته جل وعلا فقال ما تقول فيمن عنده(١) واحد اسمه جبرائيل له ستمائة جناح لونشر منها جناحين لستر الخافقين وهذا وإن كان صحيحاً فإن من عرف أن مقدوراته لا نهاية لها ؛ فلو أراد أن يخلق فى طرفة عين الألفَ الألفَ عالم لم يكن ذلك عليه بأشق من خلق بقة ، ولا خلْق البقة بأهون عليه من خلق تلك العوالم — لم يستعظمْ خلق جبرائيل عليه السلام

وفى بعض الأخبار أن ملَكاً قال يارب أريد أن أرى العرش فزِدْ فى قوّتى حتى أطير لعلّى أدرك العرش ، فخلق الله له ثلاثين ألف جناح وطار ثلاثين ألف سنة فلم يقطع قائمة العرش ، فاستأذن فى الرجوع إلى مكانه فأذن له

وقيل إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى أن يضيف يوماً جميع الحيوانات فأذن له فى ذلك ، فجمع الطعام مدة طويلة ، فأرسل الله حوتاً فأكل جميع ما جمعه ثم سأله الزيادة ، فقال له سليمان أأنت تأكل كل يوم مثل هذا ؟ فقال كلّ يوم ثلاثة أضعاف هذا ، فليتك لم تضفنى ، ولا أحالنى الله عليك

وقيل إن موسى عليه السلام أراد أن يرى السمكة التى عليها العالَم

(١) فى م (عند)

فأمره الله تعالى أن يأتى شط البحر ، فصعدت سمكة من البحر نحو السماء فلم تزل تصعد ثلاثة أيام ولم تتفرغ فقال موسى إلهى شىء مثل هذه ؟!

قال الله تعالى إنها تأكل كل يوم آلافاً مثل هذه

قال تعالى « وما يعلم جنود ربّك إلا هو » ، ثم أعظم من ذلك كله همّة العارفين التى تضيع وتتلاشى فيها كل ( )(١)فضلاً عن المخلوقات

« فصل » فى معنى « الغفور والشكور »

قد سبق الكلام فى معنى المغفرة فى اسم الغفار ، والشكور من أسمائه ورد به الكتاب ، وهو مبالغة من الشاكر ، والشاكر من له الشكر ، والشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بالنعمة على سبيل الخضوع ، والله تعالى سمّى نفسه شكوراً على معنى أنه يجازى العبد على الشكر ، سمّى جزاء الشكر شكراً كما سمّى جزاء السيئة سيئةً فى قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (قال الإمام القشيرى رحمه الله)(٢) والذى أختاره وأرتضيه أن حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه فالله شكور بمعنى أنه كثير الثناء على عبده بذكر أفعاله الحسنة وطاعاته ، ومبالغة الشكر فى وصفه بمعنى أنه يعطى الثواب الكثير على اليسير من الطاعة من قولهم دابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العلف ، ونبت شكور إذا كان يتغذى(٣) بيسير من الماء .

حكى أن رجلاً رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟

فقال أقامنى بين يديه وقال خِفْتَنى كلّ ذلك الخوف أمَا عَلِمْتَ أنى كريم ؟!

---

(١) مشتبهة فى م وناقصة فى س .

(٢) هذه زيادة فى م أوردها الناسخ

(٣) فى م وردت (يتجزى)

(ومن آداب)(١) من عرف أنه الشكور أن يَجِدَّ فى شكره ولايفتر ، ويواظب على حَمْدِه ولا يقصّر

والشكر على أقسام بالبدن وهو ألا تستعمل جوارحك فى غير طاعته ، وشكر بالقلب وهو ألا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته ، وشكر باللسان وهو ألا تستعمله فى غير ثنائه ومدحه ، وشكر بالمال وهو ألا تنفقه فى غير رضاه ومحبته

وقيل الشكر هو ألا تستعين بِنِعَمه على معاصيك ومن أمارات الشكر الزيادة فى النعمة ، قال الله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم » ،

قال بعض العارفين فى معنى قوله « وقليلٌ من عبادى الشكور » قليل من يشهد النعمة منى ، لأن حقيقة الشكر الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم

« فصل » فى معنى « العلى الكبير »

ليس علوه علوّ جهة ، ولا كِبَرُه بكبر جثة — سبحانه عن ذلك — بل علوه استحقاقه لنعوت الجلال والكبرياء ، وبهذا التفسير لم يزل عالياً علياً ولا يقال فى وصفه بالكبير كبر يكبر ، ولا كبُر يكبُر

ومن علوه وكبريائه أنه لا يزيده تعظيم العباد له وإجلالهم إياه شيئاً فى علوّه وكبريائه بل من وَفّقه لإجلاله وتعظيمه فقد أجَلّه وعَظّمه بتوفيقهم (إلى ذلك) ، ومن عرف علوّه وكبرياءه تواضَعَ وتَذلّل بين يديه ، وبين يدى الصالحين ، فعند ذلك يرفع الله قدره

روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يأتى بالجبل ليكلّمه ، فتطاول كل جبل طمعاً فى كونه محلاً للمناجاة ، وتصاغر طورسينا ، وقال

متى أستحق أن أكون محلاًّ لقدم موسى عليه السلام فى وقت المناجاة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن إئت جبل سينا لتواضعه

وحقيقة التواضع قبول الحق ممن قاله ، والتكبر جحود الحق

قال الله تعالى « وإذا قيل له اتق الله أخذَتْه العزة بالإثم »

---

(١) ناقصة فى م

وقال « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون »
حكى أن رجلاً قال لمالك بن فضول اتق الله ، فألصق خده بالتراب وقال :سمعاً وطاعة

« فصل » فى معنى « الحفيظ »

من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب ، وهو فعيل مبالغة من الحافظ فهو الحافظ لعباده فى جميع الأحوال ، فهو الحافظ للسموات والأرض قال تعالى ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم »

وقال « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا »

وهو حافظ القرآن عن التبديل والتغيير ؛ فإنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، والله وكل حفظها إلى أمته فقال « بما استحفظوا من كتاب الله » فحرّفوه وبدّلوه ، وأنزل لنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وضمن حفظه على أمته بقوله تعالى « إنا نحن نزّلنا الذكْر وإنّا له لحافظون » فلا جَرَم أن الله تعالى عَصَم أمة محمد وغيرهم عن تبديل القرآن وتغييره ؛ فلو أخطأ مخطىء فى حركة من حركات حروف القرآن أو سكون ، لأنكر عليه وخطّأه ألوف من الصبيان فضلاً عن القُرّاء .

ومن حفظه سبحانه حفظُه لقلوب أوصيائه على خلوص المعرفة من الأهواء المختلفة

ومن حفظه خلْقُه ملائكةً لحفظ بى آدم من البلاء والآفات قال تعالى « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »

وقيل من حفظ (لله)(١) جوارحه حفظ الله عليه قلبه ، ومن حفظ لله حقه حفظ الله عليه حظّه حكى أن لصاً دخل فى حجرة رابعة(٢) فسرق

(١) فى م (الله)

(٢) رابعة زاهدة مشهورة غنت فى الحب الإلهى أعذب الألحان ، ولدت وعاشت فى البصرة ، وبدأت حياتها كما يذكر العطار فى (تذكرة الأولياء نشر نيكلسون ط ص ٦١) عازفه على الناى ، ثم تابت بعد ذلك وسلكت طريق العبادة والزهادة وانتهى بها الأمر إلى محبة=

ملاءتها وهى نائمة وقصد الخروج ، فخفى عليه الباب فوضعها ، وأبصر الباب هكذا مراراً ، فهتف به هاتف ضع الملاءة فإنا الحافظون لها ، فوضعها وانصرف

ومن أعجب ما ورد فى هذا الباب قصة أمّ موسى عليه السلام حين رجعت إلى الله بصدق التوكل انظر كيف ألهمها ماذكره فى قوله تعالى

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » الآية ، فربط على قلبها ، وحفظ لها ولدها ، وردّه إليها

« فصل » فى معى « المقيت والمقتدر »

المقيت قيل الحفيظ ، وقيل معطى القوت من قاته وأقاته إذا أعطاه القوت ، وفى الحديث « كفى المرء إثما أن يضيع من يقوت » ويروى « من يقيت »

والله سبحانه جعل أقوات عباده وخلْقه مختلفة ؛ فمنهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها وأوصافها وهم الآدميون وغيرهم من الحيوان ، ومنهم من جعل قوته الطاعة والتسبيح ، وهم الملائكة ، ومنهم من جعل قوته المعانى والمعارف والعقل وهى الأرواح وبالعقل نظام جميع المحاسن ؛ قيل إن جبرائيل عليه السلام جاء إلى آدم عليه السلام وقال إنى أتيتك بثلاثة أشياء فاختَرْ منها واحداً فقال وما هى ؟ قال العقل والدين والحياة فقال اخترت العقل ، فقال جبريل للدين والحياء انصرفا ، فقد اختار العقل ، فقالا إنّا أمرْنا أن نكون مع العقل حيث كان .

ولهذا قيل ما خلق الله شيئاً أشرف من العقل ولا أحسن منه ، ولم يعط أحد كمال العقل .

واعلم أن الله تعالى إذا شغل عبداً بطاعته قيّض له من يقوم بخدمته ، وإذا شغَله بمتابعة شهوته ، وتحصيل أمنيتّه — وكَله إلى حوْله وقوّته ؛

= الله حباً فائقاً نقياً من كل غرض ، لا طمع فيه فى ثواب ، ولا جزع فيه من عقاب ، ولها فى هذا الحب أشعار جميلة رقيقة . واختلطت على بعض الباحثين أخبارها بأخبار أخريات يحملن نفس اسمها كرابعة الشامية

ألا ترى إلى آدم عليه السلام كيف أقامه ، وصان من المحن أوقاته ، وكفاه كل شغل ، وأولاه كل بر ، فأسكنه جنّته ، وقال له « إنّ لك ألاّ تجوعَ فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ، فلما نسي عهده ، مال إلى شهواته فلقى مالقى

« فصل » فى معنى « الحسيب الكافى »

يقال أعطانى حتى أحسبنى أى حتى قلت حسبى أى كفانى ، فيكون الحسيب المحسب كالأليم بمعنى المؤلم والوجيع بمعنى الموجع

وإذا كان بمعنى المحاسب كان فعيلا بمعنى مفاعل كأكيل بمعنى مؤاكل ، وشريب بمعنى مشارب ، وكذلك نديم وجليس وقعيد وما أشبه ذلك

وكفايته لعبده أن يكفيه فى جميع أحواله وأشغاله ، وأجَلّ الكفايات ألا يعطيه إرادة الأشياء ، فإن حفظه عن إرادة الأشياء أتم وأكمل من قضاء حاجاته بعد الإرادة ، فإذا علم العبد أنه كافيه لم يرفع حوائجه إلا إليه ، فهو سريع الإجابة لمن انقطع إليه ، وتوكل فى جميع أحواله عليه ، لاسيما إذا كانت حاجته فى حق الله محضاً ؛ لأنها إذا كانت فى حظ نفسه ربما يتأخر قضاؤها ومن علم أنه كافيه لايستوحش من إعراض الخلْق ، ولايستأنس بقبولهم ، ثقةً بأن الذى قُسِمَ له لايفوته وإنْ أعرضوا ، والذى لم يُقْسمْ له لا يصل إليه وإنْ أقبلوا ، فإذا دام على هذه الحالة فعن قريب يرضيه مولاه بما يختار له فيؤثر بعد ذلك العدم على الوجود ، والفقر على الغنى ، ويستريح ويستأنس بعدم الأسباب أكثر مما يستريح ويستأنس أبناء الدنيا بوجود الأغراض والأسباب

ومن علم أنه يحاسبه علم أنه يطالبه غداً بالكبير والصغير ، ويحاسبه على النقير والقطمير ، فعند ذلك يحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب ، ويطالب قلبه بالقيام بحقوقه قبل أن يُطالَب

« فصل » فى معنى « الجليل الجميل »

الجليل المستحق لأوصاف العلو والرفعه ، والجميل قيل بمعنى الجليل ، وقيل الجليل المحسن ، والجميل المجمل فعيل بمعنى مفعل كأليم ووجيع

واعلم أنه عزّ وجلّ يكاشف القلوب مرةً بوصف جلاله ، ومرة بوصف جماله ، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشاً فى دهش ، وإذا كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشاً فى عطش ؛ فمن كاشفه بجلاله أفناه ، ومن كاشفه بجماله أحياه ، فكشف الجلال يوجب (محواً)(١) وغيبة ، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة ، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا ، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا ، فمن غاب فهو مهيم ، ومن طاب فهو متيم

واعلم أن العابدين شهدوا أفضاله فبذلوا نفوسهم ، والعارفين شهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم ، والمحبين شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم ، فمن كان له علم اليقين شهد جلاله ، ومن كان له حق اليقين شهد جماله (٢)

« فصل » فى معنى « الكريم »

قال أهل الحق الكريم من صفات ذاته ، لم يزل كريما ولايزال كريماً ومعناه نفى الدناءة (عنه) والعرب تسمى الشىء الحسن الخطير النفيس كريماً — ومنه قوله تعالى « أجراً كريماً » و « رزقاً كريماً » فنفى الدناءة فى حقه باستحقاقه صفات الجلال ، وقيل الكريم فى وصفه بمعنى المحسن المجمل ، الكثير العطاء والإحسان

وقال الجنيد الكريم الذى لا يحوجك إلى وسيلة ، وقال الحارث المحاسبى (٣) الكريم هو الذى لا يبالى من أعطى

(١) فى م (صحواً) وهى خطأ فى النسخ

(٢) ما قاله القشيرى فى « الجليل والجميل » مفيد أعظم الفائدة فى تقسيم الطائفة إلى مراتب ، وخصائص كل مرتبة .

(٣) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى عديم النظير فى زمانه علماً وورعاً ومعاملة =

وقيل هو الذى لا يستقصى ، ومنه قوله تعالى فى وصفه عليه السلام « فلمّا نَبّأتْ به ، وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض »

وقال أبو على الدقاق هو الذى إذا عفا عن عبد عفا عمن له مثل معصيته ، وعمن كان سمياً له من العصاة مطلقاً

وقيل هو الذى لا يرضى أن يرفع إلى غير ربه حاجته

وقيل هو الذى لا يخيب رجاء الآملين

وقيل هو الذى لا يضيع من توسّل به ، ولا يترك من التجأ إليه ، ويحفظ حقوق خدمته إذا ماتوا وقيل هو الذى إذا أذنبت اعتذر عنك ، وإذا هجرتَ وَصَلَك ، وإذا مرضتَ عَادَكَ ، وإذا قدمت من السفر زارك ، وإذا افتقرت أحسن إليك بنفسه وماله وقيل هو الذى إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه كيف لم يبادر الى قضائها قبل أن تسأله

والعرب تسمى شجرة العنب الكَرَم إلا أنه خُفّف لكثرة دورانه على ألسنتهم ، وإنما سموه كرماً للطافة شجره ، وطيب ثمره ، ويأتى قطافة من غير تكلف مشقة صعود أوغيره ، وليس فيه شوك يعقد جوانبه كما للنخل . وفى الحديث « لاتقولوا لشجرة العنب الكرم لأن المؤمن أوْلى باستحقاق هذه التسمية لما فيه .من كرم السجايا » (خلق)(١)

« فصل » فى معنى « الرقيب الحفيظ »

ومنه سمى المَلَك الموكّل بالإنسان رقيباً ، فقال « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب » ، فالله تعالى رقيب لعباده أى حفيظ لهم ، يعلم أحوالهم ، ويعد أنفاسهم ، ومنه قولهم راقبت الله إذا علمت أنه مطلع عليك فراعيت حقه فالمراقبة عند أهل هذه الطائفة أن يصير الغالب على العبد ذكره بقلبه

=وحالا ، بصرى الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ وقيل إنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئاً ، قيل لأن أباه كان قدريا فرأى من الورع ألا يأخذ من ميراثه شيئاً ، ومات وهو محتاج إلى درهم ، ويحكى عنه أنه كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق ، فكان يمتنع عنه (الرسالة القشيرية)

(١) زائدة فى م وربما كانت (والخلق) .

أن الله مطلع عليه على الدوام ، فيخاف سطوات عقوبته فى كل نَفَس ، ويهابه فى كل وقت

سئل بعضهم لم يستعين الرجل على غض بصره عن المحظورات ؟

فقال لعلمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره ذلك المحظور.

حكى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه كان إذا جن عليه الليل أخذ يصلى فإذا تعب جلس يسبّح أنواع التسبيح ، فإذا تعب أخذ يبكى ، فإذا تعب أخذ يفكر فى جلال الله تعالى وعظمته ثم يقول لنفسه استرحت فقومى إلى الصلاة ، فإذا تعب عاد إلى التسبيح ثم إلى البكاء ثم إلى الفكر ثم إلى الصلاة ، وهكذا حتى يذهب الليل كله

« فصل » فى معنى « المجيب »

وهو من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب نصاً ، ومعناه فى وصفه أنه يجيب دعوة الداعين ، ويكشف ضرورة الطالبين ، ومن لطفه أنه يعطى قبل السؤال ، ويسدى بجزيل الثواب ، وإذا علم أن لأوليائه حاجة قضاها ذكرها بلسانهم ، وربما ضيّق عليهم الحال ابتلاء وامتحانا ورفعاً لدرجاتهم بصبرهم وشكرهم فى السّراء والضراء حتى أيسوا — تداركهم بجميل عوائده

« فصل » فى معنى « الواسع »

قيل معناه فى وصفه عز وجلّ العالم ، قال تعالى « وسعت كل شىء رحمة وعلماً » ، وقال : » وَسِعَ كُرسيه السموات والأرض » ، قيل علمه

وقيل هو الغنى قال الله تعالى « لِيُنْفِقْ ذو سعة من سعته » ، أى ذو غنىً من غنـــاه

وقيل هو الواسع العطاء ، الكثير الخير وهو أقوى الأقوال ، وكثرة عطائه لا تعد ولا تحصى ، كما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ».

واعلم أن نعم الله تعالى نوعان نعمة نفع وهى نعمته التى أولانا إياها ،

فنحن نراها ، ونعلمها ونعمة دفع (١) وهى ما دفعه عنّا من أنواع البلاء والآفات ، وهى نعمة مجهولة ، لأنا لا نعلم منها إلا اليسير النادر ، وهى أتمّ من نعمة النفع لأن دفع الضرر يقدّم على جلب النفع ، ونعمة الدفع شاملة على الكفّار أيضاً فى الدنيا والآخرة ، أمّا فى الدنيا فظاهر ، وأما فى الآخرة فلأنهم فى أى ألم وعذاب كانوا فالله تعالى قادر على أن يوصل إليهم ألما وعذاباً أشد من ذلك ، فإذا لم يوصل كان نعمة دفع

واعلم أن نعمة الله تعالى على عبده فيما يقبضه عنه من الدنيا أكثر وأوفر من نعمته عليه فيما يبسط له منها لأن قربه منه بقدر بعده عن الدنيا

حكى أن وزير المعتصم بعث مالاً إلى أبى الحسين النورى ليُفَرّقَه على أصحابه ، فوضعه النورى فى بيت ثم قال للفقراء ادخلوا البيت واحملوا منه بقدر حاجتكم ، فدخلوا ، فمنهم من أخذ دانقاً ، ومنهم من أخذ درهماً ، ومنهم من أخذ أكثر ، فلمّا خرجوا قال لهم قَرْبكم من الحق وبُعْدكم على مقدار ما أخذتم

« فصل » فى معنى « الحكيم »

من حكمته التى لا يعلم وجهها إلا هو تخصيصه قوماً بالسعادة فى الأزل من غير سبب سابق ، وتخصيصه قوماً بالشقاوة فى الأزل من غير سبب سابق أيضاً ، بل جفّ القلم فى حق الفريقين بما تعلق به العلم القديم أنه يود المؤمنين ويودونه قال « يحبهم ويحبونه » ، وقال « والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً » أى سيخلق فى قلوبهم محبته ، ومحبة الله تعالى للعبد رحمته له وإنعامه عليه ، أو مدحه له وثناءه عليه ، فإن كانت بمعنى الرحمة والمدح والثناء كانت من صفات الذات ، وإن كانت بمعنى الإنعام والإحسان كانت من صفات الفعل .

ومحبة العبد لله تعالى طاعته له وموافقته لأمره ، أو تعظيمه له وهيبته فى

(١) يطلق القشيرى على هذا النوع من النعم تسمية أخرى فى لطائفه وهى « نعم المنع »

قلبه ، وأجمع أهل الحقيقة على أن كل محبة تكون عن ملاحظة عوَض(١) فهى معلولة ، بل المحبة الصحيحة هى المحبة الصافية من كل طمع

« فصل » فى معنى « المجيد »

المجيد فى وصفه تعالى بمعنى العظيم ، الرفيع القدر ، والمجد فى اللغة الشرف وقيل المجيد العطاء أى الكثير الإحسان

ومن إحسانه إلى عباده الذى يخفى على أكثر الخَلْق حفظه عليهم قلوبهم ، وتصفيته لهم أوقاتهم ، وهذه هى النعمة الكبرى ، كما أن محنته العظمى محبة القلوب ، قال بعضهم كنت قاعداً عند سمنون (٢) وهو يترنّم فى نفسه ويضرب بيده على فخذه حتى انشقّ اللحم وسال الدم ويكرر قوله

كان لى قلب أعيش به ضاع منى فى تقلُّبه

رب فاردده علىّ فقد ضاقت علىّ به

وقال بعضهم رأيت رجلاً يطوف بالبيت ويقول

وواحشتاه بعد الأُنس ، واذلاه بعد العز ، وافقداه بعد اللقاء !

فقلت له أذَهَب لكَ مال ؟ أم أصابتك مصيبة ؟

فقال لا ، ولكن كان لى قلب فقدته

وقال عبد الله بن خفيف (٣) رأيت بمصر فقيراً يطوف على الناس ويقول

ارحمونى ، فإنى رجل صوفى ذهب رأس مالى فقلت

---

(١) فى س (غرض) والمعنى يتقبل هذه وتلك ، إذ يريد القشيرى تصفية الحب الإلهى من طلب العوض ، وأن ينقيه من الغرض .

(٢) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة صحب سريا السقطى ، والقصاب ، وهو من كبار مشايخ العراق ، مات بعد الجنيد ، ويشهر بسمنون المحب ، وله فى المحبة أشعار رقيقة جميلة إما من إنشائه أو من إنشاده

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى صحب رويما والجريرى وابن عطاء مات سنة ٣٩١ ، ومن أقواله : ليس على المريد شىء أضر من مسامحة النفس فى ركوب الرخص ، وله أيضاً قربك منه تعالى بملازمة الموافقات ، وقربه منك بدوام التوفيق .

وهل للصوفى رأس مال ؟

فقال نعم ، كان لى قلب فقدته

واعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يُسْعد عبداً أغناه بلا مال ، وكفاه بلا احتيال وأعزَّه من غير رهط وأشكال ، وإذا أراد أن يُشْقِيَه ختم له ببغتة فكر وفجأة نقمة

« فصل » فى معنى « الباعث »

الباعث هو الله لأنه يبعث العباد بعد الموت أى يحييهم ، قال الله تعالى « وأن الله يبعث من فى القبور »

وقيل المراد أنه باعث رسله إلى عباده ، قال تعالى ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم » فمن تحقّق أن الله يبعث بعد الموت للثواب أو للعقاب لم يبرح مشغولاً بتصفح أحواله ، وتفتيش أعماله

قيل إن رجلاً من الصالحين رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟

فقال غفرلى ورفع درجاتى

فقيل بماذا ؟

فقال هاهنا يعاملون بالجود لا بالركوع والسجود ، ويُعْطُون بالمنة لا بالخدمة ، ويغفرون بالفضل لا بالفعل

ويكون الباعث فى وصفه أيضاً بمعى أنه يبعث الخواطر الخفية فى الأسرار فمن دواعٍ يبعثها إلى الحسنات ، ومن دواعٍ يبعثها إلى السيئات

« فصل » فى معنى « الشهيد »

الشهيد هو العليم ومنه قوله تعالى « شَهِدَ الله » أى عَلِم الله .

والشهيد الحاضر ، وحضوره سبحانه بمعى علمه ورؤيته وقدرته ، والشهيد مبالغة من الشاهد ، والله تعالى شاهد على الخَلْق غداً ، قال تعالى « قل أى شىء أكبر شهادة قُلْ الله »

فالشهيد المشهود فكأن عباده يشهدونه ، ويكون الشاهد والشهيد فى

وصفه أيضاً بمعنى مبين الدلائل ، وموضّح الحجج ، ومنه سمى الشاهد شاهداً لأنه مبين وموضّح ، وإذا علم أن الله تعالى شهيد يعلم أفعاله ، ويرى أحواله شهد عليه بما يقاسيه لأجْله ، وهان عليه مايعانيه لرضاه ، قال تعالى

« واصبرْ لحكم ربك فإنك بأعيننا »

حكى أن رجلاً كان يُضرَب بالسياط وهو يصبر ولا يصيح ، فقال له بعض المشايخ

أمَا يؤلمك الضرب ؟

فقال نعم

قال فلمَ لا تصيح ؟

فقال في الحاضرين لى محبوب يرقبنى فأخاف أن يذهب ماء وجهى عنده إن صِحْت

فمن ادّعى محبة الحق سبحانه وتعالى ولم يصبر على قَرْصِ نملةٍ أو بعوضة — فكيف يكون صادقاً ؟!

وأهل المعرفة لم يطلبوا مؤنساً سواه ، ولاطلبوا شيئاً غيره ، كما قيل

أنتم سرورى وأنتم مشتكى حزنى
وأنتمُ فى سواد الليـــل سُمّارى
فإنْ تكلمت لم ألفظ بغـــيركم
وإن سكتُّ فأنتم عقد اضمارى

« فصل » فى معنى « الحق »

الحق من أسمائه ، وهو بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق

ويكون الحق فى وصفه بمعنى ذى الحق كقولهم رجل عدل ورضا أى ذو عدل ورضا ويكون بمعنى مُحِق الحقّ

وأكثر ما يجرى على لسان هذه الطائفة من أسمائه سبحانه وتعالى الحق ، لأنهم ارتقوا من شهود الأفعال إلى شهود الصفات ، ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات

ومن عرف أنه ذو الحق آثر حقه على حظّه ، وعلامة صدقه فى ذلك الإيثار أن يسخر له خلقه

والمبين فى وصفه سبحانه معناه أنه هو الذى يوضح الحق ويقلبه ، ويميزه عن الباطل بالحجج والبراهين ، ويبين من مكنونات (١) العدم ما لم يخطر ببال أحد من دقائق آثار الحكمة وعجائب متعلقات القدرة ، ويبين لقلوب الواجدين (٢) على الخصوص شهود الربوبية مما يزيل الشبهة ويقوى الحجة (٣)

«فصل» فى معنى «الوكيل»

الوكيل الذى وكل إليه الأمر ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، فمن عرفه وَكَلَ إليه أموره فهو المتولى لأحوال عباده ، يُصَرِّفهم على ما يشاء ويختار ، وإذا تولّى أمر عبدٍ بجميل العناية كفاه كل شغل ، وأغناه عن كل غير ، فلا يستكثر العبد حوائجه لعلمه أن كافيه مولاه ، ولهذا قيل من علامات التوحيد كثرة العيال على بساط التوكل ،

حكى أن أحمد بن خضرويه (٤) لما حضرته الوفاة كان عليه دين سبعون ألف درهم فحضر غرماؤه فقال يا إلهى إن روحى رهن فى أيديهم ،

(١) فى م (مكتومات)

(٢) فى م (الموجودين) ويحتمل أن تكون (الموحدين)

(٣) فى م (ويَقل) والمعنى يرفضها

(٤) ابن خضروية من كبار مشايخ خراسان صحب النخشبى والأصم ، والتقى بأبى يزيد ، وابن خضروية من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة توفى سنة ٢٤٠ هـ ومن كلامه القلوب جوالة إما أن تجول حول العرش وإما أن تجول حول الحش (الحش المرحاض) — فى الحرية تمام العبودية وفى تحقيق العبودية تمام الحرية . الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين . (طبقات السلمى)

فإن أردت قبضها فاقض حقوقهم ، فدقّ إنسان الباب وقال ليخرج غرماؤه فخرجوا ، وقضى ديونهم ثم مات أحمد .

واعلم أن من جعل المخلوق وكيلاً له فإنه يسأله الأجر ، وقد يخونه فى ماله ، وقد يخطىء فى تصرفه ، أو يخفى عنه الأصوب والأرشد لصاحبه ، ومن رضى بالله وكيلاً أعطاه الأجر ، وحقق آماله ، وأثنى عليه ، ولطف به فى دقائق أحواله بما لا تهتدى إليه آماله ، ولا يحيط بتفاصيله سؤاله

ومن جعل الله عزّ وجلّ وكيله لزمه أيضاً أن يكون وكيلا لله سبحانه على نفسه فى استثناء حقوقه وفرائضه وكل ما يلزمه ، فيخاصم نفسه فى ذلك ليلا ونهاراً لا يفتر لحظة ، ولا يقصر طرفة كما قيل

علىَّ رقيبٌ منك ثاوٍ بمهجتى إذا رُمْتُ تسهيلا على تَصَعَّبا

« فصل » فى معنى « القوى »

القوى فى وصفه بمعنى القادر ، وقد مضى تفسير القادر

« فصل » فى معنى « المتين »

المتين من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب وهو بمعنى القوى ، فهو على ما يشاء قدير ، لا يحتاج فى إمضاء حكمه إلى جند ومدد ، ومعين وعضد ، بل إذا أراد إهلاك عبد أهلكه بيده حتى يخنق نفسه أو يجرحها أو يحرقها أو يغرقها أو يفعل بها ما يكون سبباً لعدمها

قال أبو على الدقاق لما نادى نوح عليه السلام ابنه ، وأمره أن يركب معه فى السفينة فأبى ، وآوى إلى الجبل اتخذ بيتاً من زجاج لئلا يؤثر فيه الماء على مرور الأيام ، ودخل فيه ، وسد عليه المدخل ، فابتلاه الله تعالى بإدرار بَوْله حتى امتلأ عليه ذلك البيت بَوْلا ، فغرق قوم نوح كلهم فى الماء وغرق ابنه فى بوله

ومن علم أن مولاه على كل شىء قدير يقطع الرجاء عمن سواه ، ويفرد له سرّه كما قال الخليل عليه السلام «ربَّنَا إنِّى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع » ، أراد أنى سهلتِ طريقهم إليك ، وقطعت رجاءهم عمن

سواك ، ثم قال ليقيموا الصلاة أى شغلتهم بخدمتك خاصة ، وأنت أولى بهم منى ومنهم ، ثم قال « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ، أى إذا احتاجوا إلى شىء ذلل عبادك لهم فإنك على كل شىء قدير .

قال الجنيد رحمه الله سمعت السرى يقول إن فى قرى بغداد لله تعالى أولياء لايعرفهم الخلق ، كنت أدور فى قرى بغداد علّى أرى منهم منهم واحداً فقال هيهات أن تراهم ولكن كن منهم تراهم وأنت فى بيتك

« فصل » فى معنى « الولى »

الولى فى وصفه سبحانه وتعالى هو المتولى لأحوال العباد وأعمالهم ، وقيل هو الولى فعيل بمعنى فاعل ، يقال وَلى فلان كذا يليه ولايته فهو والٍ ، وولى له على المبالغة والولى يكون بمعنى الناصر أيضاً يقال هؤلاء أولياء فلان أى أنصاره ومنه قوله تعالى « وما لهم من دون الله من أولياء » وإنما سمى أولياء الله أولياء لأنهم أنصار دينه ، وأشياع طاعته ، وقوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بمعنى أنصاركم

ويكون الولى أيضاً فى وصف العبد بمعنى المواظب على الطاعة ، وتكون الولاية أيضاً بمعنى المحبة ، والله ولى المؤمنين أى محبهم ، قال بعض العارفين أخبر الله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال « أنت وليى فى الدنيا والآخرة » ، وعلم سبحانه أن فى هذه الأمة ضعفاء يرتكبون(١) الذنوب وليست لهم جسارة الدعوى ، فبدالهم بجميل فضله ، فقال « نحن أولياؤكم » فشتّان بين عبدٍ يقول : أنت ولّيى وعبدٍ يقال له أنا وليك ، وليس هنالك تفضيلٌ لآحاد هذه الأمة على نبى الله لكن رفق الله بالضعفاء أكثر ، وفضله منهم أقرب ، ولو لم يكن فى القرآن فى هذا الباب آية إلا قوله تعالى « إن الله مولى الذين آمنوا » — لكفاهم ذلك شرفاً ومجداً

واعلم أن العبودية للعبد نسبة ، وولاية الله ابتداءٌ ، والنسبة لم تكن ، وما من الحق لم يزل ، ولأنْ يكون مالك بمعنى لم يزل خير لك من أن يكون مالكَ (٢) بمعنى لم يكن

(١) فى م (يركبون)

(٢) فى م (جمالك) والمعنى يرفضها

ومن علامات من يكون الحق وليّه أن يصونه و (   ) (١) ويعينه على قلبه في كل نَفَس بتحقيق آماله عند إشاراته ، وتعجيل مآربه عند (٢) خطراته

قال بعض المشايخ دخلت على ذى النون المصرى يوماً فقال لى

أى شىء تقول الناس فىّ ؟

قلت يقولون إنه زنديق

فقال الأمر سهل حيث لم يقولوا إنه يهودى ، فإن قلوب الناس تنفر من اليهود أكثر

فخرجت من عنده فسمعت الناس يقولون ذو النون يهودى ، فرجعت إليه ، وأخبرته ، فتبسم ، ثم إنهم سعوا به إلى السلطان ، وقصدوه ، فركبوا زورقاً ليأتوه ، فنظر إليهم ، وحرّك شفته ، فكادوا يغرقون فتابوا وتضرعوا ، فقَبل عذرَهم فمن لم ينتقم لنفسه انتقم الله له ، ومن لم ينتصر لنفسه انتصر الله له

ومن علاماته أيضاً أن يديم توفيقه حتى لو أراد السوء أو قصد المحظور فيعصمه الله عن ارتكابه ، ولو مَال إلى تقصير فى طاعة لم يتسهل له بل ينقلب ذلك توفيقاً وتأييداً ، فهذا من علامات السعادة ، وعكسه من علامات الشقاوة ، ومن علاماته أيضاً أن يرزقه مودة فى قلوب أوليائه ، فيجلب إليه زيادة الأفضال والإنعام من الله عزّ وجل .

« فصل » فى معنى « الحميد »

فعيل بمعنى مفعول فهو محمود بحمده لنفسه ، وحمد خلقه له .

أو فعيل بمعنى فاعل فهو حامد لنفسه ، حامد للمؤمنين من عباده

والحمد فى اللغة يكون بمعنى المدح والثناء ويكون بمعنى الشكر ويكون

---

(١) مشتبهة فى م وساقطة فى س

(٢) فى م (عن) وربما يقبلها المعنى على أساس أن الله يعجل للإنسان تحقيق مآربه من قبل أن يرد ذلك على خاطره) راجع تعريف الخاطر فى رسالة القشيرى (ص ٤٦) .

بمعنى الرضا ، يقال بَلَوْتُه (١) فحمدته أى اختبرته (٢) فرضيته ويكون العاقبة يقال حماد أمرك أى عاقبة أمرك ، فقول القائل «الحمد لله» يصدُقُ بأى اعتبار أخذ من هذه الوجوه

حمد العبد للرب إذا كان بمعنى المدح والثناء لا يقبل منه إلا إذا كان عن تحقق (٣) ، والتحقق عرفان القلب بما يثنى به الرب ، لأن الله تعالى نهى أن يقول العبد فى وصفه ما لم يعلمه وإن كان صادقاً فى قوله ، قال تعالى « وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »

وإذا كان حمده بمعنى شكره فهو عبارة عن شهود المُنْعِم لا عن شهود النعمة ، قال داود عليه السلام إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك علىّ ؟ فقال الآن قد شكرتنى »

فكم عبدٍ يتوهم أنه فى نعمة يجب عليه شكرها ، وهو فى الحقيقة فى محنة يجب عليه الصبر عنها

« فصل » فى معنى « المحصى »

ورد به الكتاب ، قال الله تعالى وأحصى كل شىء عدداً » أى أحاط بكل شىء علماً ، ولهذا قيل فى قوله عليه السلام إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » أى من علمها

ويجوز أن يكون المحصى فى وصفه بمعنى عادّ الأشياء ؛ فمن آداب من علم أنه يحصى أنفاسه ، ويرعى له حواسه لِيَعْلَمَ أنه قريب وعليه رقيب ، وعلم أنه يتكلف عدّ نعمه عليه مع علمه أنه لا يحصيها إلا هو كما قال تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ليزجى (٤) وقته بذكر أنعامه ، وشكر أقسامه ، فيستوجب المزيد (من) مواهب إحسانه

---

(١) فى م (تلوته)
(٢) فى م (أخبرته)
(٣) فى م (تحقيق)
(٤) فى م (ايرجى)

« فصل » فى معنى « المبدى » و « المعيد »

المبدىء المُظْهر ابتداءً ؛ فالله تعالى مبدىء جميع الأشياء بالخلْق والإنشاء ، يقال بدأ الله الخلق وأبداهم بمعنى

والمعيد الخالق للشىء بعدما عدم ، فالإعادة ابتداء ، .فالله تعالى مبدىء الخلق ومعيدهم بالبعث والنشور يوم القيامة

واعلم أن الله تعالى يبدى فضله وإحسانه لعبيده(١)ويكرره ، فإنالكريم من (   ) (٢) صنائعه ، وهذا فى وصف المخلوق الذى إذا تركت سؤاله تركك ، فكيف فى وصف الخالق الذى كلما زدته سؤالا ، زاد حباً ونوالا

ومن جميل فضله أنه يُعيد لعبده أيامه الذاهبة ، وأوقاته الدارسة كما قيل

لئن درست آثار ما كان بيننا   من الوصل ما شوقى إليك بدارس
وما أنا من أن يجمع الله بيننا   بأحسن ما كنّا عليه بآيس

وذهب جماعة من المشايخ إلى أن الأوقات ليس لها بَدَل ، فمن فاته وقته لا يكون له إليه وصول ، وأنشدوا

فَخَلِّ سبيل العين بعدك للبكا   فليس لأيام الصفاء رجوع

قيل لما كثر بكاء داود عليه السلام أوحى الله تعالى إليه لم (٣) تبكى ؟ إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمنتك ، وإن كان رجاء الجنة فقد أعطيتك ، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك (٤) فزاد داود فى البكاء ، وقال إنما أبكى لما فاتنى من صفاء ذلك الوقت (٥) ، فاردده علىّ

---

(١) وردت فى س (ويعيده)
(٢) مشتبهة فى م و فى س
(٣) فى م وردت (كم)
(٤) فى م وردت (أرضيته)
(٥) مثبتة فى (س) وناقصة فى (م)

فقال هيهات يا داود لا سبيل إلى رد ذلك الوقت !

واعلم أنهم لم يصلوا إلى تلك الأوقات ؛ فأوقات تأسفهم وتلهفهم عليها أتم من تلك الأوقات ، لأن ذلك حق الله تعالى منهم خالصاً وليس لهم كلية حظ ، ولهذا قال موسى عليه السلام إلهي أين أجدك ؟

فقال عند المنكسرة قلوبهم من أجلى

« فصل » فى معى « المحيي المميت »

فى الحقيقة خالق الحياة والموت ، وهو الله تعالى الذى لا يقدر على ذلك غيره ، ثم اعلم أن هذه الطائفة أطلقوا لفظ الإحياء والإماته على حالتى الفرحة والترحة ، والمنحة والمحنة تجوزاً وتوسعاً كما يقال فلان أحيا فلاناً بجوده ، وأمات فلاناً بعقوبته أو بصده عنه وإعراضه ، فلهذا قال أهل الحقيقة مَنْ أقبل على الحق أحياه ، ومَنْ أعرض عنه أماته وأفناه وأنشدوا

أموت إذا ذكرتك ثم أحيـــا فكم أحيا عليك وكم أموت

وقالوا من كان فناؤه فى الله فهوحى وإن هلك ، ومن كانت حياته فى المخالفة فهو ميت وإن عاش وأنشدوا

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الميْت ميِّت الأحيـــاء

وقيــل

قد مات قوم وهم فى الناس أحياء أى بذكـــرهم الجميـــل

وقيل فى قوله تعالى « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء » أى بذكره الجميل لهم

وعند القوم الإسلام هو ذبح النفوس بسيف المجاهدة ، والإيمان هو حياة القلوب بنور الموافقة ، ولهذا قالوا لا يصح السماع إلا لمن كانت نفسه ميتة وقلبه حياً ومن علامات من ماتت نفسه زوال آفاته ، وسقوط شهواته ، وقيامه بحقوق ربه وما فيه رضاه ، وتباعده عما فيه حظوظ نفسه ومناه ، فيعيش مع الحق بالمروءة ، ومع الخلْق بالفتوة ، فبمروءته لا يخالفه فى أوامره ، وبفتوته لا ينازع الخلْق فى مطالبه ومآربه فيكون مع الله بالصدق ، ومع الخلْق بحُسْن الخُلق

« فصل » فى معنى « الحى القيوم »

الله تعالى حىٌّ ، وحياته صفة من صفات ذاته زائدة على بقائه فهو الدائم البقاء الذى لا سبيل لفنائه

والقيوم مبالغة من القائم بالأمور ، يقال فلان قائم بهذا الأمر وقيمٌ وقيّام وقيُوم ، فمعنى القيوم فى وصفه أنه المدبر والمتولى لجميع الأمور التى تجرى فى العالم

ومن علم أنه الحى الذى لا يموت لا يعتمد على مخلوق لأن من اعتمد على مخلوق وتوكّل عليه لوقت حاجته يحتمل فناؤه وقت حاجته إليه ، فيضيع رجاؤه وأمله

قيل إن رجلا قال إن صديقى فلاناً مات فمن كثرة ما بكيت عليه ذهب ، فقيل له إن الذنب ذنبك حيث أحببت الحى الذى يموت ، هلا أحببتَ الحىّ الذى لا يموت حتى كنتَ تستغنى عن البكاء عليه

قال بعضهم إن الدنيا مع الموت لا تساوى شيئاً ، فقال بل ولو لم يكن فيها موت ما كانت تساوى شيئاً وأراد بذلك أن وصول العبد إلى مولاه لمّا كان موقوفاً على موته كان موته من جملة النعم فلولم يوجد الموت ما وُجِدَ الوصولُ ، ولهذا قيل الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب وقيل من علامات الاشتياق إلى الله تعالى تمنى الموت على بساط العافية

ومن عرف أنه القيوم بالأمور استراح من كدّ التدبير ، وتعب الاشتغال بغيره ، وعاش براحة النفس ، ولم يكن للدنيا عنده قيمة

قال الأكابر إن جميع كرائم الدنيا والعقبى أقل عند الله تعالى من تبنة واحدة عند سلطان ، ومن سأل سلطاناً أن يهبه تبنةً فقد صغرت همته

« فصل » فى معنى « الواجد الماجد »

الواجدالغنى ومن الجدة وهى السعة والغنى ، وقيل العالم ومنه قوله تعالى: « ووجد الله عنده » ، أى علمه

فمن عرف أنه عالم فعلامة ذلك أن يلتجىء إليه ، والواجد فى اصطلاح

هذه الطائفة الذى أصابه الوجد ، ومعى الوجد عندهم ما يجده الإنسان ويصيبه فى قلبه من الأحوال من غير تطلب ولا تكلف ، وقيل الوجد مكاشفة الأسرار بمشاهدة المحبوب وقال الشبلى الوجد فقد والفقد فى الوجد وجد

وقيل الوجد وجود نسيم الحبيب كقول يعقوب عليه السلام « إنى لا أجد ريح يوسف »

وقال الجنيد الوجد انقطاع الأوصاف عن الشهود

وقيل الوجد نيران الأنس تثيرها رياح القُدْس .

وقال المرتعش (١) من تواجد ولم يـر منْ تواجده زيادة فى دينه فينبغى أن يستَحى ويتوب

وقال أبو سعيد الخرّاز كل وجد يظهر على الجوارح الظاهرة وفى النفس أدنى حمولة له فهو مذموم

وقال النصراباذى (٢) مواجيد القلوب تظهر بركتها على الأبدان ، ومواجيد الأرواح تظهر بركتها على الأسرار

وقال الجنيد لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وإنما يضر فضل الوجد مع نقصان العلم

وقال الجنيد ذكر الوجد عند السرى فقال يبلغ بحيث لو ضُرب وجهه بالسيف لا يحسُه ، (وكان فى قلبى منه شىء حتى بان لى أن الأمر كذلك)(٣) وكان سهل بن عبد الله يقوى عليه الوجد فلا يأكل فى خمس

---

(١) هو عبد الله بن محمد المرتعش نيسابورى من محلة الحيرة وقيل من ملقاباذ صحب أبا حفص وأبا عثمان (وهما من أعلام الملامتية) ولقى الجنيد مات ببغداد سنة ٣٢٨ قيل له إن فلانا يمشى على الماء فقال عندى أن من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء (الرسالة ص ٢٨)

(٢) هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصراباذى شيخ خراسان فى وقته صحب الشبلى والروزبارى والمرتعش أقام بنيسابور ثم خرج فى آخر عمره إلى مكة ومات سنة ٣٦٧ (طبقات السلمى)

(٣) ما بين قوسين تتمه للنص كما ورد فى رسالة القشيرى ص ٣٦ حيث توجد ألفاظ مشتبهة فى س وناقصة فى م ، والكلام مستمر للجنيد .

وعشرين يوماً إلامرة ويكون عليه قميص واحد وهو معرق فى الشتاء ، فإذا سألوه مسألة قال /

لا تسألونى فى هذا الوقت ، فإنكم لا تنتفعون بكلامى .

وقيل تواجد النورى فقام على رِجْلهِ شهراً فى مسجد الشونيزيه ، وكان إذا حضر وقت الصلاة صلى ، ثم عاد إلى قيامه ، فقال بعضهم إنه (...)(١) فبلغ ذلك الجنيد فقال لا ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يد الله تعالى لا يجرى عليهم لسان الذم .

وقيل الوجد تقع عليه العبارة ، فأما الوجود فلا تقع عليه عبارة لأنه سر بين الله تعالى وعبده .

« فصل » فى معنى « الواحد الأَحد »

اسمان من أسمائه ، قال تعالى «والهكم إله واحد» وقال «قل هو الله أحد» ، فالواحد حقيقة هو الذى لا قسم له ، ولا يستثنى منه ، هذه حقيقته عند أهل التحقيق ، فقولهم دار واحدة مجاز لأنه يصح استثناء البعض منها

قال ابن فورك رحمه الله الواحد فى وصفه عزّ وجلّ له ثلاثة معانٍ

أحدهما لا قسم له لذاته فإنه غير متبعض ولا متجزىء

والثانى أنه لاشبيه له ؛ تقول العرب فلان واحد فى عصره أى لانظير له .

والثالث أنه لا شريك له فى أفعاله يقال فلان متوحد بهذا الأمر أى لا يشاركه فيه أحد ولا يعاونه .

والأولون قالوا هذه المعانى الثلاثة مستحقة لله تعالى ، ولكن لفظ التوحيد فيه حقيقةٌ فى نفى القسمة مجازٌ فى الباقى

وأمّا الأحد فأصله فى اللغة وَحْد ، يقال رجل وحَد ووحْد بفتح الحاء وسكونها ووحيد أيضاً — كما يقال رجل فَرَد وفَرْد وفريد — فقُلبت واوه همزة

---

(١) مشتبهة فى م وهى فى س (صاحى) ولم نثبتها فى النص لأنها لو كانت كذلك لجاء رسمها (صاح) بدون ياء لأن المنقوص المرفوع تحذف ياؤه إذا خلا من أداة التعريف

واعلم أن من الناس من لا يُفَرِّق بين الواحد والأحد فى المعنى ومنهم من يفرّق ؛ فيقول الواحد اسم لمفتتح العدد يقال واحد اثنان ثلاثة ، والأحد اسم لنفى ما يذكر معه من العدد ، وقيل الأحد يذكر مع الجحد فيقال ما جاءنى أحد معناه نفى مجىء الواحد وما فوقه أيضاً ، ويقال جاءنى واحد ولا يقال جاءنى أحد وقيل الأحد إنما يُذكر فى الإثبات فى وصف الله عزّ وجل على وجه التخصيص ، قال تعالى « قل هو الله أحد » ، ولا يقال هو الرجل الأحد ، ولا رجل أحد ولكن يقال فى وصفه وحيد وواحد

والتوحيد هو الحكم بأنه سبحانه وتعالى واحد ، وذلك الحكم يكون بالقول ، وبالعلم ، وبالإشارة بالإصبع والتوحيد ثلاثة توحيد الحق سبحانه وتعالى لنفسه وهو علمه بأنه واحد وإخباره بأنه واحد ، وتوحيد العبد للحق وهو بهذا المعنى أيضاً ، وتوحيد الحق للعبد وهو إعطاؤه التوحيد وتوفيقه له

قال الشبلى رحمه الله التوحيد إفراد(١) القِدَم عن الحَدَث ، وقال ذو النون التوحيد أن تعرف « أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصُنْعَه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لِصُنْعِه ومهما تصور فى نفسك شىء فالله عز وجل بخلافه » (٢)

وقيل التوحيد فناء الرسم بظهور الاسم ، وقيل التوحيد أن تعلم أن كلّ ما خطر ببالك مما ترقى إليه كيفيته أو تنتهى إليه كميته أو تنتمى إليه ماهيته ، أو تليق بوصفه إنيته — فالله جل جلاله بخلافه

وقال بعضهم (٣) إنما لا يصح لك توحيد لأنه توحّد بك ، وتطلبه بك ، يعنى هنا أنه ينبغى أن يعلم الموحِّد له والطالب له أن توحيده إياه به ،

---

(١) فى م (إقرار) ، وإفراد أدنى إلى المعنى ، وقد جاءت فى تعريفات مماثلة أكثر من مرة فى الرسالة (باب التوحيد)

(٢) ورد النص فى م (قدرة بلا علاج ، وصنعه بلا مزاج (والأقرب ما جاء فى س وهو متفق مع النص الذى ورد فى رسالة القشيرى ص ٤

(٣) هو الشبلى كما جاء فى رسالة القشيرى ص ١٥٠

وكذا طلبه إياه به ، ويعلم أن وجوده إياه منه ، فهو المبتدىء بالفضل والمتمم له تبارك الله رب العالمين

« فصل » فى معنى « الصمد »

قيل معناه الباقى الذى لا يزول ، وقيل الدائم ، وقيل الذى لا يُطعم ، وقيل الذى لاجوف له ، وقيل الذى يُصْمَد إليه فى الحوائج أى يُقصَد وهو الصحيح ، وقيل هو السيد الذى ينتهى إليه السؤدد وهذا يؤول إلى القول الذى قبْلَه

فمن عرف أنه الدائم الذى لا يزول بالفناء والزوال (١) وقرب الارتحال ، فَلاحَظَ الدنيا بعين الفناء ، فزهد فى حطامها ، ولم يرغب فى حلالها ، ولهذا قال الحكماء لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لوَجَبَ على العاقل أن يزهد فى الذهب الفانى ويرغب فى الخزف الباقى ، فكيف والدنيا وجميع ما عليها فى الحقيقة تراب يفنى ؟!

حكى أن رجلا اشترى داراً فحفر فيها موضعاً فوجد جرة فيها ذهب ، فمضى إلى البائع وقال له إنى اشتريت الدار منك ولم أشتر الذهب فَخُذْه قال البائع إنى بعتك الدار بما فيها فلا آخذه

فتحاكما إلى القاضى ، فقال ألكما أولاد ؟ فقال أحدهما لى ابن ، وقال الآخر لى بنت فقال زَوّجا أحدهما من الآخر وأنْفقا الذهب عليهما فهذه صفة من لم يجعل للدنيا خطراً

حكى أن رجلين تنازعا فى أرض فأنطق الله تعالى لَبِنَةً من جدارٍ فيها فقالت إنى كنت مَلِكاً من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ثم مِتّ فصرت رميما ألف سنة ، فأخذنى إنسان واتخذنى خزفاً ، فاستعملت مدة ثم انكسرت وبقيت ألف سنة خزفاً ثم ضرب منى لبن ، وأنا فى هذا الجدار فلم يتنازعا بعد هذا

ومن عَرَف أنه الذى لا يُطْعَم وهو يُطْعِم يتوجه فى طلب الرزق

---

(١) وردت فى م (الذل) والزوال أقرب إلى المعنى وأكثر اتفاقا مع الفناء وقرب الارتحال .

إليه ، ويتوكل فى جميع أحواله عليه ، ولا يتهمه فى رزقه فيستعين بغيره ، فإنه كما لم يشاركه أحد فى خلْقه لا يشاركه أحد فى رزقه ، ومن يحتاج إلى ما يطلبه منه من مأكول أو مشروب أو ملبوس كما تحتاج أنت إليه — كيف تصدق الرغبة إليه فى مأمول ، أو يُرجى منه النجح فى مسئول ؟!

ومن عرف أنه الذى يصمد إليه فى الحوائج شكا إليه فاقته ، ورفع إليه حاجته وتعلّق به (١) بجميل تضرعه ، وتقرب منه بأصناف توسّله

حكى أن بعضهم زار قبر النبى عليه السلام وقال إلهى إنْ غَفَرْتَ لى سررْتَ نبيّك هذا وإن لم تغفر لى أشْمَتّ بى عدوّك الشيطان وحاشاك أن تؤثر شماتة عدوّك على سرور وليّك

« فصل » فى معنى « القادر المقتدر »

كلاهما فى القرآن ، قال الله تعالى « عند مليك مقتدر »

والقادر من له قدرة ، وحقيقة القدرة ما يتَقدّر بها المراد على حسب قصد الفاعل فى الوقوع ، ثم جهة الوقوع تختلف إلى خلْق وكَسْب ؛ فقدرة الحق تصلح للخلْق ، وقدرة العبد تصلح للكَسْب ، فالعبد لا يوصف بالقدرة على الخلق ، والحق لا يوصف بالقدرة على الكسب .

ومن عرف أنه عزّ وجل قادر خشى من سطوات عقوبته عند مخالفته ، وأمّل لطائف رحمته ونعمته ، عند سؤاله وحاجته لا بوسيلة طاعته (٢) ، بل بكرمه ومنته

وكذلك أيضاً من عرف أنه قادر سكن عن الانتقام ثقة من انتقامه ؛ فانتصاره له أتم من انتقامه لنفسه ، ولهذا قيل احذروا من لا ناصر له غير الله

واعلم أن الله تعالى كريم ؛ يقْدِر لكنه يغفر ، ويعلم لكنه يحلم روى

(١) فى م (وتملق إليه)

(٢) لاحظ هنا رأى القشيرى فى مسألة العمل الإنسانى إن قيمة هذا العمل لا تؤدى إلى ثمرة إلا إذا كان الحق يلهم به ويسدد فيه ويعين عليه ، أما إذا ظن العبد أن عمله وحده موصله إلى شىء فيصدق عليه قول رابعة إن استغفارنا فى حاجة إلى استغفار

أن حملة العرش ثمانية ؛ أربعة تسبيحهم سبحان الله عدد عفوه ، وأربعة تسبيحهم عدد حلمه بعد علمه

« فصل » فى معنى « المقدم المؤخر »

معناهما فى وصفه سبحانه تقديمه بعض الأحوال على بعض ، وتأخير بعضها عن بعض ، فى الوقت أو فى الرتبة ، وهما من دلائل إرادته وفعله

واعلم أن أولياء الله تعالى مختلفون ؛ فمنهم من يجتهد أن يكون مقدّماً بجدّه وجُهْده فى العبادة والخدمة ، ولا يرضى بالتخلف عن السابقين من إخوانه وأنشدوا

السباقَ السباقَ قولاً وفعــــلا حذروا النفس حسرة المسبوق

واعلم أن الله تعالى قدّم قوماً فى سابق حكمه ، فربما يجرى عليهم فى الظاهر أوصاف المُطْرَدين (ويتهمهم) (١) مقام المُبْعَدين ، وهم من أهل رحمته بالحكم السابق

وقيل كان ببغداد رجل صالح أذّنَ خمساً وعشرين سنة ، دخل يوماً من أيام شهر رمضان دار أخيه بعدما أذّن الظهر فرآهم يشربون الخمر ، فحلف أخوه بالطلاق لَيَشْربَن هو أيضاً معهم قدحاً واحداً ، فشرب لئلا تطلق امرأة أخيه ، ثم استدرجه الخمر فشرب ثانياً وثالثاً حتى سكر ، فطلبوه لإقامة الصلاة ، فحلف ألا يصلى أبداً ومات فى سكره ذلك ، فكان ممن أخره الله تعالى فى سابق حكمه ، فلم ينفعه طول جهده وعنائه ، نسأل الله تعالى حسن العاقبة بحسن توفيقه

« فصل » فى معنى « الأَول » و « الآخر » و « الظاهر » ، و « الباطن »

أوّل وزنه أفعل ، من آل يؤول مثل أعوذ من عاذ يعوذ ، فأصله أو أل

(١) هكذا فى م ومشتبهة فى س .

قلبت الهمزة الثانية واواً فاجتمع واوان فأدغمت إحداهما فى الأخرى فصار أوّل وتأنيثه أولى كأكبر وكبرى ، وآخَر بفتح الخاء تأنيثه أخرى

والأول فى وصفه بمعنى القديم الأزلى الذى لا ابتداء له ، والآخِر فى فى وصفه بمعنى أنه لا انتهاء له ، ولا انقضاء لوجوده

والظاهر فى وصفه سبحانه بمعنى القاهر لخلقه، من قولهم ظهر فلان على فلان أى قدر عليه وقهره

والباطن فى وصفه عزّ وجلّ بمعنى العليم بخلقه ، المدبرّ لأحوالهم وقيل معناه الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ، ودلائل توحيده ، والباطن المتعزز على قوم ، المحتجب عنهم حتّى أنكروا وجوده وجحدوه

وقيل إن هذه الأسماء إشارة إلى صفات أفعاله ؛ فهو الأول بإحسانه ، والآخر بغفرانه ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته

وقيل الأول بحسن تعريفنا إيّاه إذ لولا توفيقه وهدايته أولاً لما عرفناه ، وقيل هو الأول بالهداية ، والآخر بالرعاية ، والظاهر بالكفاية ، والباطن بالعناية

وقيل الأول بالإسعاد والآخر بالإمداد والظاهر بالإمجاد والباطن بالإرشاد.

«فصل» فى معنى «البر»

البرُّ من أسمائه ورد به الكتاب فى قوله تعالى «إنه هو البر الرحيم»

والبر هو المحسن ، وفلان بار بأبويه إذا كان محسناً إليهما ، والبر من الخلْق من تتوالى منه أعمال البر ، ومن كان الله تعالى باراً به عصم عن المخالفات نَفْسَه ، وأدام بفنون اللطائف أُنْسَه ووفّر فى طريقه اجتهادَه ، وجعل التوفيق زادَه ، وجعل قصده سداده ، ومنبع سلوكه (١) إرشاده وأغناه عن أشكاله (٢) بأفضاله ، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله (٣) فهو غنى

(١) ناقصة فى م

(٢) أشكاله يقصد بها القشيرى هنا وفيما بعد ذلك بقليل أمثاله من الخلق

(٣) فى م جاءت (أقواله) ولا يستقيم المعنى بها

بلا مال ، وعزيز بلا أشكال مَلِكٌ لا يستظهر بجيش وعَدَد ، وغنى لا يتمول بِعُدَد

ومن آداب من عرف أنه البر أن يكون باراً بكل أحد لاسيما بوالديه لقوله عليه السلام « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما » .

وحكى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه رأى رجلا قائماً عند ساق العرش فتعجّب من علو مكانه ، فقال يارب بم بلغ هذا العبد هذا المحل ؟

فقال إنه كان لا يحسد عبداً من عبادى على ما أتيته ، وكان باراً بوالديه وقيل إن الحسن بن على رضى الله عنه كان لا يأكل مع أمه رضى الله عنها فقالت له فى ذلك ، فقال أخشى أن يقع بصرك على شىء من الطعام فأسبقك إليه ولا أعلم وأكون عاقاً ، فقالت له كُلْ معى يا بنى وأنت فى حل من هذا

واعلم أن برّ التلامذة للشيوخ والأستاذين يجب أن يكون أكثر من برهم لوالديهم ، فإن الوالدين يحفظانه عن آفات الدنيا والشيخ يحفظه عن آفات الآخرة ، الأب يربيه بنعمته ، والشيخ يربيه بهمته

« فصل » فى معنى « التواب »

من أسمائه سبحانه ، ورد فى الكتاب فى مواضع كثيرة منها قوله « واستغفره إنه كان توّابا » ، والتوبة الرجوع من تاب ، وتاب وأناب وآب كلها بمعنىً واحد (١) ومعنى وصفه سبحانه بالتوّاب أنه يتوب على عبده أى يعود عليه بألطافه ، ويوفقه ويُيسّرها له ، وقيل معناه قبول التوبة منه ، وقيل خلقه التوبة له كما قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا ، فعلم أنه ما لم يتب على العبد لا يتوب العبد ، فابتداء التوبة من الله تعالى بالخلق ، وتمامها عليه بالقول

---

(١) فى رسالة القشيرى تفرقة بين هذه الثلاثة فالتوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فمن تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب إنابة ومن تاب مراعاة للأمر لا خوفاً ولا طمعاً فهو صاحب إنابة ص ٥٠

« فصل » فى معى « المنتقم »

الانتقام افتعال من النقمة ، وهو غاية الكراهية للشيء ، وغاية العقوبة عليه أيضاً ، قال الله تعالى « وما نقموا منهم » أى وما كرهوا ، « هل تنقمون منا »أى تكرهون ، فانتقام الله تعالى عقوبته للعصاة على ما كره منهم ، والكراهة فى وصفه سبحانه بمعى ذم الفاعل والحكم عليه بالعقوبة ، لا بمعى نفرة النفس ولحوق المشقة كما هو فى وصف العباد والله تعالى يغضب فى حق خلقه بما لا يغضب فى حق نفسه ؛ فينتقم لعباده بما لا ينتقم لنفسه فى خاص حقه

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال إن العبد يكون له وقت طيب ، فيأمر الله تعالى جبرائيل أن يرفع ذلك عن قلبه اختباراً وامتحاناً ، فإن ضجّ وقلق ردّه إليه وزاده ، وإن لم يهم لذلك لم يرده إليه وتكون بذلك نقمته وقد يستجير العبد بربه عُقَيْبَ زَلّته بلا فَصْل فتدركه (١) الوجهة قبل حلول الانتقام فيؤوبه الله تعالى إلى كنف سَتْرِه ، ويُعجِّل له المغفرةَ بلطيف بِرّه

« فصل » فى معى « العفو »

مبالغة من العافى والعفوّ له معنيان أحدهما الفضل ومنه قوله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » يعى ما فَضَل من أموالهم ، وقوله تعالى « حتى عفوا » ، أى كثُروا

ويقال عفا مال فلان أى كثُر ، فالعفوّ على هذا هو الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل

والعافى الذى يمحو ويزيل ومنه قولهم عفت الرياح الآثار إذا محتها وأزالتها ؛ فالعفو على هذا الماحى لآثار الذنوب ، والمزيل لها بريح (٢) المغفرة كما قال تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » قيل يمحو الذنوب

---

(١) فى م (فقد أدركه)

(٢) مشتبهة فى م

من ديوان الحفظة على أن ينسيها قلوبهم ، وقلوب المذنبين أيضاً قيل إن رجلا من الصالحين قال يوماً والله لا يغفر اللهُ لفلان ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان قد غفرت لك وأحبطت عمل ذلك الحالف

ومن عرف أنه سبحانه عفوٌّ طلبَ عفوه ، ومن طلب عفوه تجاوز عن خلقه ، فإن الله تعالى بذلك أدبهم فقال جل جلاله

« وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

واعلم أن الكريم إذا عفا حفظ قلبَ المسيء عن الاستيحاش ووجْهَه عن الخجل ، فلا يذكره سوء فعله (كأنما الصفح قد نزع ذنبَه والفضل قد كساه ثوبَه)(١)

« فصل » فى معنى « الرءوف »

الرأفة شدة الرحمة ، كذا الرافة (بالمد) الرحمة وفى الحقيقة إرادة النعمة وتسمى الرحمة نعمةً مجازاً ، فرحمة الله لعبادة إرادته الإحسان إليهم من غير علة ، فالله أرحم بعباده من كل أحد ، ورحمته فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وهى فى الآخرة خاصة بالمؤمنين روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى بعض الأسفار فمرّ بامرأة تخبز ومعها صبى لها فقالت يا رسول الله بلغنى أنك قلت إن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها أفهو كما قيل لى ؟ قال النبي نعم

قالت فإن الأمّ لا تلقى ولدها فى هذا التنُور

فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن الله تعالى لا يعذّب بالنار إلا من (٢) أنف أن يقول لا إله إلا الله

ومن رحمته بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته ، وإن عصمته عن الزلة أبلغ فى باب الرحمة من غفرانه المعصية ، وربما رحم عبداً بما يكون فى الظاهر مشقة وشدة ولكنه فى الباطن نعمة ورحمة والعبد لا يعلم ، فكم من

---

(١) العبارة غير واضحة فى (س)

(٢) ساقطة فى ه. ومثبتة فى س

عبد يرثى (١) له الخلق لما به من الضر والفاقة وسوء الحال وهو فى الحقيقة فى نعمةِ تغبطه (٢) عليها الملائكة وقيل إن نبياً شكا إلى الله تعالى الجوع والعُرْى والقمل فأوحى الله تعالى إليه أماتعرف مافعلت بك ؟ سَدَدْتُ عنك أبوابَ الشِّرْك

ومن رحمته بعبده أن يصونه عن ملاحظة الأغيار فلا يرفع حوائجه إلا إليه قيل لبعضهم سَلْ حاجتك فقال مَنْ وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه منّة

وقال رجل لبعض الصالحين ألك حاجة ؟

فقال لا حاجة بي إلى من لا يعلم حاجتى !

« فصل » فى معنى « مالك الملك ذو الجلال والإكرام »

قد سبق معنى الجلال فى اسم الجليل وأنه بمعنى استحقاقه للرفعة وصفات العلو .

ومن عرف جلاله تذلل وتواضع له ، جاء فى بعض الروايات أن لله ملائكةً منذ خلقهم لا يَفْتَرون عن البكاء ، ولا تقطر من دموعهم قطرة إلا خلق الله تعالى منها ملكاً ، ولا يرفعون رءوسهم إلى يوم القيامة ، ويقولون : سبحانك ما عبدناك حَقَّ عبادتك .

وقيل إن من حملة العرش ملائكة صورتهم كصورة العِجْل ، فمنذ عَبَدَ بنو إسرائيل العِجْل وضعوا أيديهم على وجوههم حياءً من الله تعالى

قال ابن الجلاء (٣) كنت راكباً جملا فى وقت ، فقلت جلّ الله . فقال . الجمل بلسان فصيح جلّ الله !

(١) فى م وردت (يرحمه).

(٢) فى م وردت (تغبطها) والأصح (تغبطه)

(٣) هو أبو عبد الله بن الجلاء واسمه احمد بن يحيى أصله من بغداد ، وأقام بالرملة ودمشق وكان من جلة مشايخ الشام ، صحب النخشبى وذا النون وكان أستاذ محمد بن داود الدقى يقول اسماعيل بن نجيد (كان يقال إن فى الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم الجنيد ببغداد وأبو عثمان بنيسابور وابن الجلاء بالشام) (طبقات السلمى)

وليس جلال الله سبحانه بأنصار وأعوان ، وسبب من الأسباب بل جلاله كونه بالوصف الذى تلحق به الرفعة والعزة وصفات العلو

والإكرام قريب من معى الإنعام إلا أنه أخص منه ، لأنه ينعم على من لا يكرمه ، ولا يكرم إلا من ينعم عليه وإكرام الله عزّ وجلّ لعبده يكون معجلاً فى الدنيا ومؤجلا فى الآخرة ، وعلى ما فيه من التقصير فإن الحق ينعم عليه وهو يشكر غيره ، ويرزقه وهو يخدم غيره ويسأل غيره

« فصل » فى معى « المقسط الجامع »

المقسط العادل يقال أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار

ومعى العادل فى وصفه سبحانه وتعالى أن أفعاله كلها حسنة .

والجامع فى وصفه سبحانه وتعالى بمعى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب ، فيجمع يومئذ لحومهم المتفرقة ، وجلودهم المتمزقة وعظامهم النخرة وهو الجامع بين الأشكال والأمثال ، وبين المختلفات والأضداد ، من الجماد والنبات والحيوان ، فى صورها وألوانها وطعومها وروائحها ، ومنافعها ومضارها ، وأفعالها وأخلاقها بحيث لا يأتى التفصيل على آحادها فى مدى الأعمار تبارك الله أحسن الخالقين

فى خبر مسند أن الوحوش أوالبهائم إذا حشرت يوم القيامة سجدت لله تعالى سجدة فتقول لها الملائكة ليس هذا يوم السجود ، هذا يوم الثواب والعقاب ، وإنما حشركم لتشهدوا فضائح بى آدم فتقول البهائم والوحوش : هذا منّا سجود شكر حيث لم يجعلنا الله تعالى من بى آدم .

وقيل لو أن رجلا له ثواب سبعين نبياً وله خصم بدانق لا يدخل الجنة حتى يرضى خصمه وقيل يؤخذ بدانق فضة سبعمائة صلاة مقبولة فتُعطى لخصمه وقيل كما يرجو الظالم رحمة الله تعالى فالمظلوم يرجوها فإذا اقتصّ له من الظالم فذلك برحمة منه ، ولو لم يقتص له منه لكان قد رحم الظالم ولو لم يرحم المظلوم ، والحكيم العادل منزه عن ذلك .

وهو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره ليتخلصوا عن أسباب

التفرقة ، فيطيب عيشهم لأنهم لا يرون الوسائط ، ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير ، إن كانت نعمة علموا أن الله تعالى معطيها ، وإن كانت بلية علموا أنه كاشفها

« فصل » فى معنى « الغنى المغنى »

المغنى معطى الغنى لعباده ، ويكون بمعنى معطى الكفاية أيضاً ، والله تعالى مغن عباده بعضهم عن بعض لأن الحوائج — على الحقيقة — لا تكون إلا إليه ، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك ذلك لغيره ؟ ولهذا قيل تعَلّقُ الخَلْق بالخَلْق تعلق المسجون بالمسجون وقيل من رفع حاجتة إلى الله تعالى ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره (١) ابتلاه بالحاجة إلى الخلق ثم نزع رحمته من قلوبهم ، ومن شهد افتقاره إلى الله تعالى فرجع إليه عند حاجته ، أغناه من حيث لم يَحْتَسب ، وأعطاه من حيث لم يرتقب

وإغناء الله تعالى عبادَه على قسمين فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله وهم العوام — وهو غِنًى مجازى ، ومنهم من يغنيه بتصفية أحواله وهم الخواص — وهو الغنى الحقيقى ؛ لأن احتياج الخلْق إلى همة صاحب الحال أكثر من احتياجهم إلى لقمة صاحب المال

« فصل » فى معنى « المانع »

المانع فى وصفه سبحانه بمعنى منع البلاء عن أوليائه ، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً ؛ فإذا منع البلاء عن أوليائه كان ذلك لطفاً جميلاً ، وإذا منع العطاء عنهم كان ذلك فضلاً جزيلا .

حكى أن موسى عليه السلام قال إلهى إنى جائع ، فأوحى الله تعالى إليه إنى عالم .

والله سبحانه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يحمى قلب عبدٍ عن المخالفات إلا وهو من خواص أوليائه

---

(١) فى م (ثم رجع عند حاجته)

« فصل » فى معنى « الضار النافع »

اسمان من أسمائه سبحانه وفى معناهما إشارة إلى التوحيد ، وهو أنه لا يصيب عبداً ضر ولا نفع ، ولا خير ولا شر إلاّ بمشيئته وإرادته ، وقضائه وقدرته فمن استسلم لحُكْمه عاش فى راحة ، ومن أباه وقع فى كل آفة

قيل إن أول ما كتب الله عزّ وجل فى اللوح المحفوظ « أنا الله الذى لا إله إلا أنا ، من لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر على نعمائىَ ، فلْيَطْلُبْ رَبّاً سواى »

وقيل من لم يرضَ بالقضاء فليس لحمْقه دواء .

ومن عرف تفَرّد مولاه بالإيجاد ، وتوحّده فى الاختراع فوّض أموره إليه ، فعاش فى راحة ، والخلق فى راحة ، وبذل النصح لكل واحد ، ولم يجد فى قلبه غشاً ولا خيانة لغيره

ولا يرحم العبدُ عبداً إلا إذا رحمه الله تعالى ، قال تعالى لنبيّه عليه السلام : « فبما رحمةٍ من الله لنت لهم » ، وقال النبي عليه السلام « الراحمون يرحمهم الرحمن »

وسرِق للحسن إزار فجلس يبكى ، فقيل له فى ذلك فقال
إنما أبكى لأن مسلماً ستلحقه غداً عقوبة من أجلى ، ثم قال
اللهم اغفر له .

« فصل » فى معنى « النور »

النور من أسمائه سبحانه ورد به الكتاب فى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » ، قيل معناه منوّرهما ، وقيل الهادى لأهلهما ، وقيل سمى نوراً لأن منه النور ، والعرب تسمى مَنْ منه الشىء باسم ذلك الشىء ، فإذا كان بمعى المنوّر فهو منوّر الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنوّر الأبدان بآثار العبادات ، ومنوّر القلوب بالدلائل والحجج ، فالطاعة زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح والله عزّ وجل يزيد

قلب المؤمن نوراً على نور ، يؤيده بنور البرهان ثم يؤيده بنور العرفان ، قال الله تعالى « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » ، والله جلّ جلاله يهدى القلوب بنوره إلى محاسن الأخلاق ، ليؤثِر العبد الحقّ ويَدَع الباطل .

وفى الخبر أن الله تعالى يحب معالى الأخلاق ويكره سفافها ، ومن معالى الأخلاق التحرز عن رق الأشياء ، واستصغار قدر الدنيا ، والجود بها على كل أحد ، فالله تعالى يحب كل جواد سخى

وقيل إنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تَقْتُلْ السامرىّ ، فإنه سخىّ

وقيل السخاء أن تجود على من لا يعرفك ، والسؤدد أن تنصف من لا ينصفك .

« فصل » فى معنى « الهادى »

الهداية فى اللغة الإمالة ، ومنه سميت الهدية لأنها تميل قلب المُهْدَى إليه إلى المُهْدِى ، أولأنها تمال من مِلْكٍ إلى مِلْكٍ ، فالهداية إمالة القلب إلى الحق ، وقيل أصل الهداية فى اللغة التقديم ، ومنه سمى العنق هادياً لتقدمه على البدن ، فالهادى فى وصفه جلّ جلاله بمعنى المقدّم لأهل الخير إلى الرتبة التى يستحقها ، والله عزّ وجلّ كما يهدى عباده إلى معرفته بحسن التعريف ، يهديهم إلى محاسن الأخلاق ومعالى الأمور بحسن التشريف قال تعالى « ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها »

واعلم أن الهداية إلى حسن الخلق فرع الهداية إلى معرفة الحق لأن الدين شيئان صدق مع الحق ، وخُلُقٌ مع الخلق .

وقيل حسن الخلق احتمال المكروه بحسن المداراة ، وقيل بَسْط الوجه ، وكف الأذى وقيل لا يبقى للكونين فى قلبك أثر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لِمَنْ بات حاجاً وأصبح غازياً » ، قالوا ومن هو يا رسول الله ؟ فقال من كثر عياله ، وضاقت

يده ، وحسن خلقه معهم ، يدخل ضاحكاً ، ويخرج ضاحكاً ، أنا منهم وهم منى ، وهم الحاجون الغازون فى سبيل الله

وقال الفضيل بن عياض (١) لأنْ يصحبى فاجر حسن الخُلُق أحبّ إلىّ من أن يصحبى عابد سيء الخلق

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخلق الحسن طوق من رضوان الله تعالى فى عنق صاحبه ، مشدود إلى سلسلة من الرحمة ، والسلسلة مشدودة إلى حلَقةٍ فى باب الجنة ، حيثما ذهب الخُلُق الحسن جرّته السلسلة إلى نفسها تُدْخِله من ذلك الباب الجنةَ ، والخلُق السوء طوق من سخط الله فى عنق صاحبه ، والطوق مشدود إلى سلسلة من عذاب الله ، والسلسلة مشدودة إلى حلقة فى باب النار ، حيثما ذهب الخلق السوء جرّته السلسلة إلى نفسها لتدخله من ذلك الباب النار

« فصل » فى معنى « البديع »

البديع معناه المبدع ، فعيل بمعى مفعل ، كأليم ووجيع وكلّ مَن فعل فعلاً فهو مبدع ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنها قول لم يُسبَق إليه قائله فالله تعالى مبدع الأشياء لا على مثال تقدّم ، ولا من أحدٍ تعلّم

وقول البديع الذى لا مثل له ، وهذا أيضاً صحيح فى حق لله عزّ وجل ، و لمبدىء فعيل بمعنى فاعل ، يقال بدأ لله الخلق وأبداهم فهو باديهم ومبديهم . ومن آد ب من عرف هذا الاسم أن يجتنب البدعة ويلازم السنة

والبدعة كل ما ليس له أصل فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة قال أبو عثمان الحيرى (٢) من أمّر السُنّةَ على نفسه قولا وفعلاً نطق بالحكمة ،

---

(١) الفضيل بن عياض خراسانى من مرو وقيل إنه ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد ومات بمكة سنة ١٨٧ ه ، ويقال إنه كان شاطراً يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس وكان سبب توبته أن عشق جارية فبينما يرتقى الجدران اليها سمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » — فقال يارب قد آن .

(٢) أبو عثمان الحيرى أصله من الرى ورد نيسابور مع شاه الكرمانى والتقى بأبى حفص الحداد وتخرج به ، مات سنة ٢٩٨ ، ويعد الحيرى من شيوخ الملامتية الكبار ، ومن أقواله لا يستوى إيمان الرجل حى يستوى فى قلبه أربعة أشياء المنع والإعطاء والعز والذل — منذ أربعين سنة ما أقامى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلى إلى غيره فسخطته .

ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة وقال النبي صلى الله عليه وسلم من أحبّ سنتى فقد أحبّنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة

وقال سهل بن عبد الله التسترى أصول مذهبنا ثلاثة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وأخلاقه ، وأكل الحلال ، وإخلاص النية فى جميع الأحوال

وقوله تعالى « ويعلمهم الكتاب والحكمة » ، جاء فى التفسير أن الحكمةَ السُنّةُ قال بعضهم رأيت رسول الله «ص» فى المنام فقلت يا رسول الله إشفع لى فقال قد شفعت لك ، فقلت متى ؟

فقال اليوم الذى أحْيَيْتَ فيه سُنّةً من سُنّتىَ قد أميتَتْ

قال ابن عباس رضى الله عنه ما يأتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سُنّة حتى تحيا البدعة وتموت السنة

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لاتجالس أهل الأهواء فيحدثوا فى قلبك ما لم يكن

وقال سهل بن عبد الله من داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه

وقال أبو على الدقاق من استهان بأدب من آداب الإسلام عوقب بحرمان السُّنَّة ومن ترك السُّنَّة عوقب بحرمان الفريضة

واعلم أن بركة اتباع السنة توصل العبد إلى حقائق القربة ، وخصائص الزلفة ، قال تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »

« فصل » فى معنى « الباقى الوارث »

الباقى من أسمائه سبحانه وتعالى ، وحقيقته من له البقاء ، والبقاء صفة من صفات ذاته

ومما يجب أن تشتد العناية بمعرفته أن المخلوق لا يجوز أن يكون متصفاً بصفات ذات الحق ، فلا يكون عالماً بعلم الحق ، ولا قادراً بقدرته ولا سميعاً بصيراً بسمعه وبصره ، ولا حياً بحياته ، ولا باقياً ببقائه لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة ، كما لا يجوز قيام الصفة الحادثة بالذات القديمة ؛ وحفظ هذا الباب أصل التوحيد .

ومن زعم خلاف هذا فقد خرج عن الدين ، وانسلخ عن الإسلام ، وكانت بدعته أشنع من قول النصارى إن الكلمة القديمة (١) اتحدث بذات عيسى هذه البدعة قول الحلولية الذين جوزوا على ذات الحق الحلول فى الأشخاص المحدثة ، وربما تعلّقوا فى نصرة مقالتهم الشنيعة بقوله فى الخبر المشهور « فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وبي يبصر » ولا حجة لهم فيه لأنه لم يقل إنه يسمع بسمعى ويبصر ببصرى ، بل قال فبي يسمع الخ ومعلوم بالاتفاق أن ذاته المقدسة لا تكون للعبد سمعاً ولا بصراً ، فقد خرج ظاهره عن كونه مراداً بالاتفاق ، فوجب الرجوع إلى التأويل الصحيح دون الفاسد حتى إن من هؤلاء الجهّال من يقول بأن معرفة العبد ليست بمخلوقة ، وإيمانه ليس بمخلوق ، وروحه ليست بمخلوقه . وأصل هذه البدعة قول من قال لفظ العبد وقراءة القرآن غير مخلوقة فلما جوّز هذا القائلُ أن يُوجَدَ على لسان المخلوق قُرآن قديم يسمع منه ، زاد عليه أولئك فى التدقيق وقالوا إن العبد يكون باقياً ببقائه سبحانه

والوارث الباقى بعد فناء الخلْق

« فصل » فى معنى « الرشيد »

معناه المرشد ، فعيل بمعنى مفعل ، وإرشاده لعبده هدايته قلبه إلى معرفته ، وهو الإرث الأكبر الذى خص به أولياءه ، ويعد إرشاده عباده إلى اختيار طريق طاعته ، والتوقى بها عن مخالفته ، ثم إرشادهم إلى ما فيه صلاح حالهم من أسباب معاشهم ، قال الله تعالى « ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها »

---

(١) مشتبهة فى م .

وعلامة إرشاده الحق إلى إصلاح نفسه أن يحسن التوكل عليه ، ويفوّض أموره بالكلية عليه ، وأن يستخيره فى كل شغل ، ويستجير به فى كل خطب ، كما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى « ولما توجّه تلقاء مدين قال قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل » ، هكذا ينبغى للعبد إذا أصبح أن يتوكل على ربه ، فلا يستقبله شغل إلا فزع فيه إلى الله تعالى ، وانتظر ما يَرِد على قلبه من الإشارة ، فيقضى أشغاله ، ويكفيه جميع أموره ، فإن رجع عن هذا بعدما أرشده الله تعالى إليه عاتبه ، ليعلم أنه وجَدَ فيه سوءَ أدب ، فيرجعَ عنه إلى سكونه وترك اختياره واحتياله فالله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته ، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته ، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته ، وأسرار الموحدين إلى تطلع قربته(١)

« فصل » فى معنى « الصبور »

الصبور فى وصفه سبحانه بمعنى الحليم ، وأصل الصبر فى اللغة الحبس ، ومنه « شهر الصوم شهر الصبر » لأن فيه حبس النفس عن الشهوات ، والصابر عن الشيء والصابر على الشيء كلاهما حابس نفسه عما يصبر عنه وعليه

وفى وصف الله عزّ وجلّ بالصبر لا يقبح معنى حبس النفس ، (وإنما) يكون بمعنى تأخير العقوبة بالحِلْم

والصبر فى حق العباد على ثلاثة أقسام (٢) ، أولها التَّصَبُّر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة ، ثم الصبر وهو سهولة تحمل ما يستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء ، ثم بعده الاصطبار وهو النهاية فى الباب ، ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشقة ، بل يجد روْحاً وراحة كما قيل

تعودتُ مَسّ الصبر حتى ألِفْتُه وأسلمنى حسنُ العزاء إلى الصبر

(١) من هذا النص نتعرف إلى رأى القشيرى فى مراتب أهل الحق زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد ، ونتعرف إلى ملكاتهم الباطنية نفس ثم قلب ثم روح ثم سر ونتعرف إلى غاياتهم فى كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحى طاعة فمعرفة فمحبة فقرب .

(٢) لاحظ هنا الارتباط بين صنيع القشيرى فى الاشتقاق من الناحية اللغوية وبين المرادات الصوفية.

وقيل أيضاً

صابر الصبر فاستغاث بـــه الصبر　　فصاح المحب بالصبر صـــبرا

قيل ليس الصبر ألا تتذكر البلاء لفظاً ونطقاً بل هو ألا تعترض بقلبك على قضائه وقدره ، وإن ذكرت حالك له ، ورفعت قصتك إليه بلفظ لك ودليل ذلك أن أيوب عليه السلام قال « إنى مسى الشيطان بنصب وعذاب » ،

وقال « إنى مسى الضر » ، ومع هذا كله لما كان راضياً بقلبه ، غير مغير ظنه قال الله تعالى فى حقه « إنا وجدناه صابراً »

وقال جماعة شرط الصبر ألا تتنفس بخلاف الإذن تحت جريان حكمه وقال قائلهم

إنْ كنتَ للسقم أهـــلاً　　وكنتَ للشكـــر أهـــلا

عذّبْ فلم يبقَ قلـــبٌ　　يقول للسُّقم مهـــــلا

وقيل حقيقة الصبر تجرّع البلاء من غير تعبيس(١)

وقيل إن أيوب عليه السلام أوحى الله تعالى إليه يوماً من الأيام يا أيوب شكوتنى !؟ فقال إلهى إلى مَنْ ولم يُسْمَعْ أنيى ؟

فقال شكوتنى إلى أعدى عدوٍ لى وهو نفسك

وقيل ينبغى أن يكون الصابر فى حكم الله عز وجل كالميت بين يد الغاسل يقلّبه كيف يشاء

وقيل الفرق بين الحليم والصبور فى وصف الخلق أن الحكيم من يتجاوز عن غيره بلا تكلف ولا مقاساة مشقة والصبور هو الذى يراود نفسه عن أخلاقها ويتحمل كرهها

---

(١) هذه الأبيات أنشدها أبو الحسين النورى أمام الجنيد (طبقات السلمى ترجمة النورى)

(٢) فى م (تعيس) والسياق يؤيد « تعبيس » وقد ورد النص بها فى رسالة القشيرى ضمن نص للجنيد يبدأ هكذا (المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين والصبر مع الله عز وجل أشد فسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس) الرسالة ص ٩٢

حكى عن الأحنف بن قيس أنه كان يقول أنا صبور ، ولست بحليم مع أنه كان يضرب به المثل فى الحلم وحكى عنه أن كان يجىء من موضع وإنسان يتبعه ، ويتسافه عليه ، وهو يصبر ، فلما قارب محلته وقف وقال لذلك الرجل

إن بقى فى قلبك شيء فقله ، فإنى أكره أن يسمعك شبان قومى فيقابلونك بما تكره

والصبر الواجب على العبد هو الصبر على ما أمر الله تعالى به من الطاعات ، والصبر عما نهى عنه من المحارم ، والسكون تحت ما يجرى من قضائه وقدره

وفقنا الله تعالى لذلك وأدخلنا الجنة من فضله وكرمه ،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

الفهرس

الموضوع	الصفحة